



أحاديث إلى الشباب

سلامة موسى

أحاديث إلى الشباب

تأليف
سلامة موسى



أحاديث إلى الشباب

سلامة موسى

الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إن مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: إيهاب سالم

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ١٦٨٠ ٥

صدر هذا الكتاب عام ١٩٥٧.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٩.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرخصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المَصْنَف، الإصدار ٤.٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

٧	شبابنا والثورة
١١	السلوك السيكولوجي الناضج
١٥	شبابنا وكيف نتقفه
١٩	قديمنا وجديدنا
٢٣	يجب أن نراجع حياتنا
٢٧	الفنُّ من الدِّين
٣١	الشباب والفنون الجميلة
٣٣	الفنُّ الجميل لرجل العلم
٣٥	التثقيف الذاتي للشبان
٣٩	كيف نتعلم لغة أجنبية؟
٤٣	النمو الذهني للمرأة
٤٧	الامتحانات والشهادات
٥١	علم النفس على الشاشة البيضاء
٥٥	السلوك الزوجي
٥٩	تزوجوا الصحة
٦٣	زواج العقل
٦٧	زواج بلا دموع
٧١	جمال المرأة بعد الزواج
٧٥	الفتاة التي تكسب
٧٩	زوجات بلا خدم

٨٣	الليلة الأولى للزواج
٨٧	كيف نجعل أقرباءنا أصدقاء
٩١	مشكلة العادة السرية
٩٥	العادة السرية كنتيجة للكرب النفسي
٩٩	الأمراض النفسية أرسقراطية
١٠٣	إنهاض الشبان بعد سقوطهم
١٠٩	الجرائم والمجرمون
١١٣	الطلبة الذين يقتلون ويسرقون
١١٧	نحن شعراء في الصباح
١٢١	دنيا المخاوف التي نعيش فيها
١٢٥	مرض النفس يحدث مرض الجسم
١٢٩	الخمور والمخدرات
١٣٣	الإرهاق سبيلٌ إلى المرض والموت
١٣٧	كيف يُخترع الاختراع
١٤١	الانتحار بالموت وغيره
١٤٥	اطلب المال ولكن ...
١٤٩	أيها الآباء: ارحموا الأبناء
١٥٣	على هامش السيكلولوجية
١٦١	كان تولستوي يحرق الأرض
١٦٥	أعظم اللذات
١٦٩	الاستقلال الفكري

شبابنا والثورة

كلّما مرَّ وقت على ثورة مصر خُيِّلَ إلينا أننا قد انفصلنا عن تاريخنا السابق حتى لكأننا لا نعرفه.

فإنَّ الفرق في المبادئ والأفكار والخطط كبير عظيم، وكثير من شبابنا يجهلون هذا الفرق؛ لأنهم لم يكونوا على وعي بالمجتمع السائد في مصر قبل عشرين سنة، وكذلك بالحكومات المستبدّة، وبسلطان المستعمرين، وبالارتقاء العامّ في الإدارة الشعبية، وتأخر التعليم، وموت الصناعة، وحجاب المرأة.

لقد عشنا، نحن الشيوخ، في دنيا كان يسودها الفقر؛ إذ مرّت بنا سنون لم يكن يزيد فيها أجر العامل في الصعيد على عشرين مليمًا في اليوم، وكان الجندي يتناول قرشًا واحدًا في اليوم؛ إذ كان الضباط الإنجليز يريدون إذلاله قبل كل شيء، ولم يكن يجاز لمصري بأن يؤسس مصنعًا، ولو نجح بالوسائل والشفاعات في تأسيسه لكانت الخسارة محققة لإغراق السوق بالبضائع الأجنبية، ولم يكن يؤذن لنا بإنشاء جامعة، بل إنني أذكر عندما كنتُ طالبًا بالمدرسة الثانوية أنه لم يكن في القطر المصري كله سوى ثلاث مدارس ثانوية، وكان المستعمرون من الإنجليز والرجعيون من المصريين على رأي واحد في إبقاء المرأة في الحجاب وتحريم التعليم عليها، حتى بقينا بعد ١٨٨٢، أي سنة الاحتلال المشؤومة، بقينا نحو أربعين سنة وليس لوزارة المعارف سوى مدرسة ابتدائية واحدة للبنات.

وإلى هذا سلط المستعمرون والمستبدون علينا شبكة من الجاسوسية تحت أسماء «البوليس السياسي» و«القلم المخصوص» ونحو ذلك، كانت تراقب ما نقوله وما نكتبه، وتقدمنا للمحاكمة بتهمة الدعوة إلى المبادئ الهدّامة أو الثورة على العرش أو احتقار السلطة الشرعية أو حتى احتقار ملك أجنبي.

وقد اتُّهمتُ أنا في سنة ١٩٤٦ بأني أدعو إلى الجمهورية والاشتراكية وألقي بي في السجن نحو أسبوعين، كان منهما عشرة أيام على الإسفلت، وعمَّ الفساد بلادنا، فلم يكن يُعَيَّن في وظيفة حسنة إلا أبناء الإقطاعيين، بل إن أحد العلماء وصف فاروق الفاسق بأن الله قد اختاره لتجديد الدين في مصر، وكتب أحد القضاة في أحد أحكامه يقول: إن الشعب كله في خدمة الملك، وكان لنا سفراء في عواصم البلاد كل ميزاتهم أنهم يلعبون الجولف أو التنس، وكان لنا وزراء يركعون على الركب أمام فاروق ويقبلون يده النجسة.

كل هذا، وأكثر منه، رأيناه وقاسيناه وعشناه.

ولذلك نعرف قيمة الثورة.

الثورة أعطتنا الكرامة بدلاً من الذل، أعطتنا الاستقلال بدلاً من الاحتلال، واعترفت للمرأة المصرية بكرامة جديدة وأدخلتها بمجلس الأمة، وألفت لنا جيشاً، وأسست لنا المصانع، وجعلت التعليم حقاً مباحاً للفقير كما هو للغني، وضربت الإقطاع في أساسه، ومسحت من تاريخنا عارَ قناة السويس التي أمتتها في وجه الأعداء الأقوياء، وزرعت الصحراء، وأقامت المشاريع الاقتصادية على النيل، وفوق كل هذا وذاك طردت من مصر الفسق والدعارة والذل والرشوة والندالة بخلع فاروق.

هذه الدنيا الجديدة لا نعرف قيمتها إلا بالمقارنة مع دنيانا القديمة؛ ولذلك نحن الشيوخ نُقدِّر الثورة، ونرغب في المحافظة عليها؛ لأننا نخشى العودة إلى ما كنّا عليه من فساد وانحيار.

ويمكن أن نعرّف الثورة بأنها: هدمٌ للماضي وبناءٌ للمستقبل.

وقد هدمنا الكثير من الماضي البالي وشرعنا في البناء للمستقبل، ولكن هذا البناء ليست له نهاية نقف عندها، وهنا واجب الشباب.

إن أعباء المستقبل يجب أن يحملها شباب مصر، فنحن الشيوخ زائلون أو قد اقتربنا من الزوال، وأمام كل شاب نحو نصف قرن سيحيا سنيها في هذا الوطن المقدّس، فعليه أن يبني، أي عليه أن يكون ثائراً يأخذ بمبادئ الثورة، فيعمر بلادنا، ويعمل على تقوية الشعب وزيادة رخائه وثرائه بالزراعة والصناعة والتعليم، ودفع المرأة إلى الأمام، والتزام الأخلاق القوية وتعميمها، والحرص على استقلالنا وحرّيتنا وجمهوريتنا.

وليبدأ الشاب بنفسه، أي يجب أن يثور على نفسه فينزع منها عوامل الضعف والاستهتار، ويعمل وينتج، ويجب أن تكون له كرامة ترفعه عن الرضا بأن يكون عيالاً على غيره، أي إن غيره يُنتج وهو يستهلك، أجل، يجب أن يكون شعارنا في المستقبل شعار الشباب، هو: لا يجوز لمصري أو مصرية أن يستهلك دون أن ينتج.

ويجب أن نحتقر الوارث الذي ينام على ميراثه ولا يكد ويعمل وينتج، كما نحتقر المتسول الذي يعيش عيلاً على غيره، ويجب أن ندعو المرأة للعمل في الإنتاج العام؛ حتى يزيد ثراء الشعب ورخاؤه وقوته، وبكلمة أخرى يجب أن نكون اشتراكيين نسير على هدى الاشتراكية ونظامها.

ولكن يجب مع ذلك أن يعرف الشاب أن مصر تعيش في ظروف دولية حرجة تناديها بأنَّ «تَنَازُع البقاء» هو المذهب السائد في هذا العالم، وأنها لن تبقى إلا إذا كانت جديرة بالبقاء، أي قوية ثرية منتجة، تعمل للسلام ولكنها تستعد للدفاع.

السلوك السيكولوجي الناضج

يجب أن تعرف ثلاث كلمات تنفك كثيراً في فهم السيكولوجية:

الكلمة الأولى: هي النيوروز، أي جنون العواطف، فالنيوروزي شخص يتعقل الأشياء ولكنه يحس بضغط العواطف ضغطاً شديداً، بحيث يعجز أحياناً من مقاومتها، فهو يخاف كثيراً مثلاً، أو يتشكك كثيراً، أو يجد رغبة جنسية شاذة لا يطيق حبسها، وهو حين يتعقل يجد أن كل هذه المخاوف والشكوك أوهام، ولكنه لا يعرف كيف ينفذها عن نفسه، وهي لذلك تعوقه ليس عن النجاح وحده، بل عن الحياة السوية.

والكلمة الثانية: هي السيكوباتية، وهي مرض نيوروزي خاص، هي مرض الإجرام، فالسيكوباتي يرتكب الجريمة ويبدو أمام الناس كأنه رجل سوي، فهو عدو المجتمع من حيث لا يهتدي إليه المجتمع، وهو أحياناً يفسق بالغلman، أو يقتل في الخفاء، أو يسرق، أو يزور إلخ، فالجرمون هم السيكوباتيون في التعبير السيكولوجي.

والكلمة الثالثة: هي السيكوز، أي جنون العقل، حين يخترع المجنون لنفسه عالماً آخر غير العالم الواقعي، ويسير في خيالاته، يستأنس بها ويعيش عليها بعد أن يكون قد انقطع عن الواقع، ومعالجته شاقة تقارب المستحيل، إلا إذا كان مبتدئاً في مرضه، أما النيوروزي والسيكوباتي فيمكن معالجتهم.

وإذا تركنا هذه الطرز الثلاثة من الناس فإن غيرهم يعدون سويين، أي ليس بهم مرض نفسي، ولكن هذا الكلام العام يحتاج إلى تنبيه، وهو أن جميع الأمراض النفسية أو العقلية نجد بذرتها في الشخص السوي، ولكنها بذرة ضعيفة تبقى خامدة فينا جميعاً إلا في فترات سرعان ما نبرأ منها.

ولكن الأخلاق السوية التي نصفها بالبعد عن الأمراض الثلاثة التي ذكرنا تدرج في طرازين في أغلب الحالات:

- طراز الشخصية التي تعتمد على العادات والعقائد والتقاليد.
- وطراز الشخصية التي تعتمد على العقل والمنطق والابتكار.

والطرازان يتداخلان؛ إذ ليس هناك واحد منّا يستطيع أن يقول أو يزعم أنه لا يستسلم لكثير من العقائد والعادات والتقاليد، فإن العيش في كنفها سهل لا يحتاج إلى بذل مجهود من التفكير، وكذلك لا يمكن أحد أن يقول: إنه يطرد عقله في جميع الحالات ويسلم بعقيدته؛ إذ إن هناك مواقف جديدة يحتاج كل منّا فيها أن يبتكر. ولكن هناك الطراز الذي يغلب عليه العقل، وهناك الطراز الآخر الذي تغلب عليه العقيدة.

والأغلب أنه عندما تتغلب العقيدة يركد الشخص ويخشى التفكير والابتكار، ويهنا بسلوكه الهادئ في المجتمع، وينشد الطمأنينة، ويعود رجعيًا يمدح السلف ويحتقر الخلف، ويتشائم بالمستقبل؛ لأنه يجد الطريق إليه شائكًا بالابتكارات التي تخالف عقيدته، وهو إذا جمع مقدارًا من المال أدّخره وجمّده في خزانته دون استغلال؛ إذ هو يشكُّ في الكسب المنتظر، وهو يبخل على نفسه وأهله؛ لأنه يشك ويخاف، ونجد هذا الطراز كثيرًا في الريف، حيث الأخلاق التقليدية، بل حيث تتغلب التقاليد والعادات على فنون الزراعة نفسها. ومثل هذا الرجل يعيش هادئًا مطمئنًا لا يقع في الفاقة ولا يرتفع إلى الثراء، ولكنه يعيش بلا عقل؛ لأن العقيدة انتحار للعقل، فإذا ناقشته وجدته متحجرًا، يعيب على الجيل الجديد نزقه واستهتاره، أي حريته، أليست الحرية انطلاقًا من العقائد والتقاليد؟! وهو يحتقر الثقافة ويلتزم الزراعة ويكره السياحة، وبالطبع لا يعرف معنى للثورة؛ لأنه يطلب السلامة، والثورة فتنة وشغب وقلق يخشاها جميعها، وحياته وأعماله وأخلاقه تكرارية بلا ابتداع، فهو يعيش في ١٩٥٧ كما كان يعيش في ١٩٠٧، وهو يكره من أبنائه أن يقتنوا سيارة أو يغيروا أزياءهم من القفطان إلى البنطلون، ويعد هذا كله تمرّدًا منهم لا يليق بالأبناء نحو الآباء.

هذا هو منطق الرجعية.

فالرجل الرجعي سويٌّ لا يستطيع أن تجد فيه شبهة المرض النيوروزي أو السيكيوباثي أو السيكوزي، ولكنه لا يسلك السلوك السيكلوجي الناضج، فلا يبتكر ولا يتغير ولا يتطور ولا يدرس ولا يرتقي.

وقد يكون هذا السلوك الرجعي فرارًا من مجهود التقدم والارتقاء، فقد ينشأ أحد الشبان تقدميًا ارتقاءً في وطن رجعي، فيجد العقبات والعقوبات، فيعود رجعيًا راضيًا بناسه وعصره، وعندئذ يهدأ ويطمئن، وكي يبرر موقفه يشنع على التقدميين الارتقائيين، ويعزو إليهم الضعف والخيانة والحقارة، وقد حدث هذا لبعض من الأدباء في مصر. أما الطراز الآخر من الشخصية فهو تلك التي تعتمد على العقل والمنطق والابتكار، أو بالأحرى يتغلب على سلوكها العقل والمنطق والابتكار.

هو طراز القلة التي تتسم بالنضج السيكولوجي الخصب. والرجل من هذا الطراز لا يسلم بالعقائد، وإنما هو يبحث ويستطلع ويسأل الناس ويفتش الكتب، ويزيد معارفه بالسنين، ولا يبالي أن تكون هذه المعارف خطيرة، وهو يعتمد على عقله؛ ولذلك يدرس كثيرًا كي يقارن ويستنتج، وهو يبتكر ويخترع، وهو في نظر الناس غير سعيد؛ إذ هو يجهد نفسه فيما لا يعود عليه أو على أبنائه بكسب مادي، ولكنه هو سعيد بمجهوده، وكثيرًا ما يخالف العرف العام بشذوذه الذهنية التي لا تتفق والعقائد الموروثة، وقد يلقي به في السجن ويجد الاضطهاد من الحكومة والمجتمع، ولكنه لا يبالي كل ذلك؛ لأنه سعيد أمام ضميره، يعرف أنه يخدم المجتمع والإنسانية، ويجد في نفسه إحساس الشرف بل لذة الشرف.

والشعوب تتغير بمثل هذا الرجل، بمثل قاسم أمين الذي رفس بقدميه تقاليد بلاده وابتكر فكرة السفور بدلًا من الحجاب، ولقي البغض والاحتقار، ثم بعد ذلك، بعد موته، لقي الاحترام والحب.

والشعوب ترقى بالمبتكرين الذين يبتكرون في الأدب والعلم والصناعة ووسائل العيش، وهي تركد بالرجعيين الذين يلتزمون التقاليد والعادات والعقائد.

وأنت ما هو طرازك: ابتكاري أم تقليدي؟ ناهض أم راكد؟

شبابنا وكيف نثقفه

أثير في الصحف موضوع خطير هو المستوى الثقافي العام لخريجي الجامعات: أي لشبابنا المتعلم الذي نعتمد عليه في سياسة الدولة، والتعليم والصحة العامة، والبناء القومي والمادي لبلادنا.

وقد عيب على هؤلاء الخريجين نقصهم الفاضح في الجغرافية وأسماء البلاد حتى القريبة منّا، بل إن بعضهم أخطأ في موقع الأردن: دع عنك مكانها في الإطار العالمي السياسي.

وقد أحسن الذين أثاروا هذا الموضوع، وهذا مع أنهم لم يذكروا العلاج لهذا النقص الذي أثبتوه.

والذي يجب أن نثبته أن الجامعات غير مسئولة عن هذا النقص، وإذا كانت هناك أية مسئولية على دور التعليم فإن المدارس الثانوية أولى من غيرها بالتثقيف العام.

ذلك أن كليات الجامعة إنما أنشئت للتخصص، فالطالب في إحداها كيمائي، وهو في الأخرى حقوقي، وفي غيرها جيولوجي أو مصرلوجي أو متخصص في الآداب العربية أو الآداب الإنجليزية، أو هو يدرس الصيدلة أو الطب أو الهندسة.

والتخصص في هذه العلوم أو الفنون لا يتيح للطلاب أن يكون مثقفاً، ونعني تلك الثقافة العامة التي تجعله رجلاً كاملاً أو بالأحرى يطلب الكمال في الفهم العام، أي يعرف مكانه في هذه الدنيا أو يفهم المبادئ التي يتجه إليها الطب، مع أنه هو مهندس مثلاً، أو يتذوق الشعر، مع أنه هو طبيب، أو يدرس السياسة العالمية مع أنه هو زراعي، إلخ.

وفي معاهدنا التعليمية، من المدرسة الابتدائية إلى المدارس الثانوية إلى الجامعة، لا نكاد نجد الفرصة لأن يحصل الشاب المصري على ثقافة «عامة» إلا إذا كنّا نعد الدراسة الثانوية سبيلاً إلى هذه الثقافة.

وهي مع ذلك سبيل ضيق، ولكن يمكن في المستقبل أن نتوسع في الدراسات الثانوية على نحو ما يجري في فرنسا، بحيث تتناول هذه الدراسات موضوعات مختلفة، ولكن متعددة أيضًا، لا يصل فيها التلميذ إلى الغاية، وإنما تنبعث في نفسه بها الحوافز للاستزادة في المستقبل، وهي لذلك عرض أكثر منها درسًا.

والذين انتقدوا انخفاض المستوى الثقافي عند خريجي الجامعة إنما انتقدوا في الحقيقة، ومن حيث لا يدرون، التعليم الثانوي؛ إذ هو التعليم الذي كان يمكن أن يُعد شبابنا للثقافة العامة.

أقول: «يُعدهم» أي يفتح لهم الطريق فقط، أما التثقيف العام فليست مشكلته في مدرسة أو جامعة، وإنما هو مشكلة العمر كله، وهو مجهود شخصي على الشاب أن يقوم به، ولا يعتمد فيه إلا على نفسه، ولكنه مع ذلك محتاج إلى الوسائل التي تثقفه.

وهذه الوسائل هي الكتاب والمجلة والجريدة.

وأهم هذه الوسائل لعامة المثقفين وليس لخاصتهم هو الجريدة التي تطلع كل صباح وفيها من التشويق بالصورة والخبر ما يُغري باقتنائها، ومع أن للخبر قيمة تثقيفية كبرى فإن الجريدة المثلّ كما أتخيلها في ذهني يجب أن تزود قراءها بألوان شائقة من الثقافة العالية والمتوسطة بأقلام كتاب يعرفون كيف يكتبون للجمهور، وليس للخاصة، وكيف يبعثون فيه الاهتمام بالسياسة العالمية، والارتقاء الزراعي، وتقدم الصناعة، ووسائل تحطيم الاستعمار الظاهر والخفي، ومعاني النهوض أو التأخر في الشعوب، والطاقة الجديدة في العلوم العصرية، ونحو ذلك.

ويزيد على الجريدة في تثقيف القراء هذه المجلات الشهرية التي تستطيع أن تستوعب بالإسهاب ما تنشره الجرائد اليومية بإيجاز، وفي ذهني الآن هذه المجلات الفرنسية العظيمة التي تدأب في تعليم الجمهور، فإنها جامعة، بل جامعات تشرح في لغة شعبية مأنوسة قضايا العلوم والآداب والفنون، وتحاول أن تعمم الثقافة بل الحضارة بين قرائها.

ويمكن القارئ الفرنسي لهذه المجلات أن يرتفع إلى أعلى مستوى في الثقافة إذا تابع بحوثها، حتى ولو لم يكن قد حصل على تعليم جامعي، ثم أزيد هنا أن المدرسة الثانوية في فرنسا هي بتعدد موضوعاتها الدراسية، وأيضًا بزيادة عدد الحصص اليومية فيها خير ما يهيئ حامل «البكالوريا» منها للثقافة العامة، بل خير ما يبعث فيه الشوق ويثير الحافز لأن يبقى طيلة عمره يدرس ويفهم.

ولا أعرف لماذا لا نأخذ بهذا النظام الفرنسي في التعليم، فإنه يتفوق على غيره كمًّا وكيفًا، ولكم هنا قيمة يجب ألا نبخسها.

ثم هناك الكتب التي يؤلفها الاختصاصيون بلغة شعبية في الفلك والكيمياء والذرة والتطور والطب والتاريخ والسياسة والاشتراكية والشيوعية ونحوها مما ينير القراء، وليس في أوروبا بيت يخلو من رفٍّ كتب إن لم نقل خزانة أو خزانات تحتوي المئات من المجلدات. سبيل الثقافة العامة هو الجريدة الجادة والمجاملة الخادمة والكتاب المبسط، وليس هو المدرسة أو الجامعة.

ثم هذه الثقافة هي مجهود شخصي، أي على الشباب أن يبحث عنها ويسأل ويدرس نحو خمسين أو ستين سنة، عمره الواعي كله، أي يجب ألا ينقطع عن الدرس إلا أن يموت. وفي عصرنا هذا، عصر الذرة، يجب أن تكون العلوم المركز العام للثقافة، ولا أستطيع أن أصف أديباً أو مؤرخاً أو شاعراً أو صحفياً بأنه مثقف ما لم يكن قد درس علماً من العلوم.

يجب أن نهدف من الثقافة إلى أن نجعل أذهان الشباب عصرية، ولن تكون كذلك إذا أهملنا العلم.

قديمنا وجديدنا

إذا قيل لأحد الشباب: «إنك قد تعودت الشراب أو التدخين أو الكسل، وإنك يجب أن تغير هذه العادات حتى تتاح لك فرص النجاح والتوفيق»، فإنه مع ما يجد من الصعوبة في التغير يسلّم بقوة المنطق في هذه الكلمات ويحاول أن يتغير.

ويجب أن يكون الشأن كذلك في العادات القومية السيئة، وهي قومية من حيث إنَّ العرف يتطلبها، ولكنها شخصية أيضًا من حيث إن كل فرد يمارسها ويكاد يؤمن بتقديسها، ويخشى مخالفتها؛ لأنه عندئذ يكون عُرضة لألوان من التحقير الاجتماعي.

وبعض عاداتنا القومية والشخصية ينحدر إلينا من تاريخنا الماضي الذي يخالف التاريخ الحاضر؛ ولذلك لا تتفق هذه العادات مع حياتنا العصرية، وهي ترهقنا بتكاليف كبيرة يضيع فيها الوقت والمال، ولكن بعض عاداتنا القومية والشخصية أيضًا قد جلبت إلينا من الخارج، وهي باهظة التكاليف أيضًا، إذا كان الأوروبيون يمارسونها؛ فلأنهم أثرياء، أما نحن ففي فقرنا الحاضر، لا نكاد نتحملها إلا مع الإرهاق الذي يتعبنا ويعسرنا. رأيت هذين الشهرين الماضيين حادثين:

الأول: بشأن عاداتنا القديمة المنحدرة إلينا من التاريخ، فقد مات رجل فقير لم يكن يكسب في حياته أكثر من عشرة جنيهات في الشهر، وأخلف زوجة وثلاثة أبناء كل منهم في حاجة إلى القرش الأبيض الذي ينفع في اليوم الأسود، ومع هذا الفقر أقامت له زوجته مأتمًا أمام منزلها يتألف من سرادق وكراسي وأرائك وخدمة للمعزين؛ حيث يشربون القهوة وما إلى ذلك، مما استنفد الجنيهات الغالية التي كانت هي وأبنائها أحق بها وأحوج إليها، ولا بدَّ أنها قَتَرَتْ في الإنفاق على أبنائها بعد ذلك، ومنعت عنهم حاجاتهم الحيوية؛ كي تعوّض الخسارة الفادحة التي تحملتها في الإنفاق على أبهة المأتم لزوجها.

هذه إحدى العادات القديمة التي يُسأل عنها المجتمع، والتي يقع الضرر منها على الفرد.

وكذلك رأيت في الشهرين الماضيين عُرسًا بلغت أثمان الزهور التي قُدمت هدايا للعروسين فيه ما لا يقل عن سبعين جنيهًا؛ إذ كانت من الكثرة بحيث ازدحم البيت بها، وما هو أن طلع الصباح في الغد حتى أزيحت ونُقلت جميعها إلى صندوق القمامة.

وقد أخذنا هذه العادة عن أوروبا، فهي عادة عصرية، ولكنها من أسوأ العادات؛ إذ هي تبذير سخيف، وكان جدودنا أعقل منّا؛ إذ كان العريس يقعد بعد الزفاف ويضع طربوشه مقلوبًا في حجره، ثم يتقدم إليه الضيوف بالهدايا وهي هدايا من النقود، فما هو أن ينتهي الحفل حتى يكون قد جمع في طربوشه نحو سبعين جنيهًا ينهض بها فرحًا ويتهيا بها هو وعروسه كي يشتريا ما يحتاجان إليه من أثاث العُش الجديد.

وقد تركنا هذه العادة السامية النافعة وأخذنا بعادة إهداء الزهور العقيمة، وهذا برهان على أن القديم ليس على الدوام سيئًا لأنه قديم، كما أن الجديد ليس على الدوام حسنًا لأنه جديد؛ إذ يجب أن نتعقل ونختار، بل يجب أن نبتدع.

ولكن هنا الصعوبة، فإننا كثيرًا ما نتردد بين القديم والجديد، وفي أغلب الحالات يحن القلب إلى القديم، ولكن العقل ينزع إلى الجديد، وهنا الصراع والتردد اللذان يشلّان العقل عن التفكير والإقدام، ويبعثان الكمد والجمود في النفس.

فنحن مثلًا في صراع وتردد في شأن المرأة المصرية، فمنّا من يقول بأن رسالة المرأة هي حمل الأطفال وخدمة الزوج ولزوم البيت، أو أنّ هذه الواجبات هي رسالتها الأولى، وهذا هو الرأي القديم.

ومنّا دعاة الرأي الجديد الذين يقولون بأن المرأة يجب أن تخدم شخصيتها قبل أن تخدم الزوج أو البيت أو الأبناء، وأنها لذلك يجب أن تختلط بالمجتمع، تعمل كالرجال سواء في الوظيفة الحكومية أو التجارة أو الصناعة.

ولكلّ من هذين الرأيين ملابساته السيكولوجية، فدعاة القديم يقولون بأن المرأة دون الرجل في الكفاءة، وكذلك في الميزات البشرية الأخرى، ولا يزال اليهودي بحكم التقاليد حين يصلي يشكر الله؛ لأنه لم يخلقه امرأة، ودعاة الجديد يطلبون من المرأة أن تتعلم وتتفوق وتملأ المناصب العليا في الدولة كالوزارة والسفارة ونحوهما.

والفتاة نفسها تحسّ هذا الصراع والتردد، فهي سافرة ولكن في نفسها إحساس الحجاب، وهي تعمل في الوظيفة، ولكن في نفسها أن سعادتها أو بالأحرى كرامتها لن تتم إلا بالزواج، وأن الزواج مهما حقر وهان خير من العمل الحر الكريم.

وكذلك الأب يؤمن بتعليم ابنته، ولكنه يقف عند نيلها الشهادة التوجيهية ويرفض إدخالها الجامعة.

وهذا التردد وهذا الصراع يبدوان في الحوادث اليومية والمشكلات العائلية والزوجية، فإن الشاب الذي نشأ على العادات والتقاليد لا يسلم بتأتا بأن للمرأة حق التصرف بحياتها؛ إذ هو يحس أنه وكيل عنها في حياتها؛ ولذلك يأخذ على عاتقه حماية عرضها، وقد يقتلها إذا خالفت المألوف في هذه المسألة، ثم يأتي القاضي «العصري» فيحكم بإعدامه، ولا يجد في دعاويه عن العرض أقل مبرر للتخفيف عنه.

والشاب الذي يحيا في هذا الوسط يحس في نفسه صراعاً بين عاداتنا القديمة التي تطالب المرأة بالحجاب النفسي، بل بشيء أيضاً من الحجاب المادي، وبأن تخضع الخضوع التام لزوجها واندغام شخصيتها، بل إعدامها في شخصيته، وبين الرأي الجديد الذي يحمل بالطبع معه أخطاره أيضاً، وهو الذي يقول بأن للمرأة شخصيتها الإنسانية وحريتها الاجتماعية وارتقاءها الذاتي وحظها الذي تصنعه بنفسها في هذا الوجود.

ماذا نفعل في هذا الصراع؟

أول ما يبدو هنا فيه أنه صراع بين القرن العشرين والقرون الماضية، وأن الظروف التي حملت الشعوب الأخرى على الأخذ بعادات اجتماعية جديدة هي نفسها الظروف التي نعانيها نحن الآن، والتي تلابسنا ونلابسها، وإذن يجب أن نأخذ بهذه العادات الاجتماعية الجديدة، بل إننا سنضطر إلى الأخذ بها؛ لأنها نشأت بضغط هذه الظروف، وليس هناك سوى الضرر في التأخير في الأخذ بها.

وفي مجتمعنا المصري جيوب اجتماعية قديمة لها عرف وتقاليد وأخلاق تختلف جميعها من الموكب العام للارتقاء، فإن الأخلاق السائدة في أسرة العمدة في القرية تختلف عن الأخلاق السائدة في أسرة الطبيب في القاهرة، والفتاة الناشئة في أسرة العمدة تكاد تُعدُّ الفتاة الناشئة في أسرة الطبيب شاذة في أخلاقها حمقاء في سلوكها. ولكننا، نحن المتمدنين، نعرف منَ منهما هي الفتاة الراقية المتمدنة.

ويجب أن يقف الشاب في صف الرقي، كما يجب أن يصرَّ على أن يكون من أبناء القرن العشرين ما دام يعيش فيه، ويجب أن يختار بين العادات النافعة والضارة.

يجب أن نراجع حياتنا

كل منّا يعرف شئون حياته الخاصة أكثر مما يعرفها غيره، ولكن الواقع أن «غيره» هذا يستطيع أن يرشده ويبيّره بأخطائه أكثر مما يستطيع هو نفسه؛ وذلك لسبب واحد هو أن كلاً منّا يرتبط بالتفاصيل، وهذا الارتباط يحول بينه وبين النظرة الشاملة لحياته كلها. واختباري أنا أن ما يفصل أحداً من الآخر في مقدار الذكاء هو هذه «النظرة الشاملة»، فالإنسان الذكي على الدوام ينظر إلى الأشياء والشئون والناس النظرة المحيطة الشاملة، وغيره يقف عند التفاصيل وينظر إلى الجزء بدلاً من الكل، فتختل موازينه وتزيغ عن الصواب.

ونحن لا نعرف كيف ننتقد أنفسنا؛ لأن هناك من التفاصيل ما نعجز عن التخلص منه؛ ولذلك يكون رأيُّنا عن أنفسنا دون الرأي الذي يريته غيرنا الذي يجهل هذه التفاصيل. اعتبر هذا المثال:

زوج يكره زوجته لمشادة حدثت بينهما تُبذلت فيها كلمات غير حكيمة، وهو كلُّما حمل نفسه على أن يصلحها عادت إلى ذاكرته بعض هذه الكلمات، بل عادت إليه ملامح زوجته الكاشرة وتهجمات الوقحة، فهو موتور بهذه التفاصيل، مع أن كل ما حدث بينهما خلاف غير خطير، تدرّج بالنزق والانفعال إلى مشاجرة لم تزد على دقائق. فالزوج هنا مرتبط — وأحب أن أقول: مربوط — بالجزء الذي يعميه عن الكل، وبالتفاصيل التي تعميه عن الجملة؛ ولذلك يشيح بوجهه وبقلبه عن زوجته، ويتعنن كلاهما في الخصومة، ولكن «الغريب» الذي يجهل هذه التفاصيل يذكر الكلّ بدلاً من الجزء، فيعرض للحياة الزوجية كلها بينهما؛ ثلاثين أو أربعين سنة من العشرة ورعاية الأبناء، ووحدته الهدف، فيجد أن هذا الشجار يُعدُّ من التفاهة بحيث لا يُذكر إلى جنب «كل» الحياة الزوجية.

الأشجار تعمينا عن رؤية الغابة، أي إن التفاصيل الصغيرة تعمينا عن رؤية الجملة والكل والمجموع.

ويصدق هذا على كل شأن من شئونها اعتبر مصلحة من المصالح الحكومية، أو إحدى الشركات الحرة، قد ارتبكت أعمالها؛ فإن النظرة الأولى تحملنا على الظن بأن الأفراد في هذه المصلحة أو هذه الشركة هم خيرٌ من يصلحونها؛ لأنهم يعرفونها أكثر من غيرهم، ولكن الواقع غير ذلك؛ لأن عواطفهم مربوطة بالتفاصيل الصغيرة وبالفعل المكرر وبالحسد وبالغيرة وبالصناعات القديمة؛ ولذلك يعجزون عن الإصلاح.

ولذلك أيضاً تختار الحكومة لجنة مؤلفة من الغرباء الذين لا يعرفون الأشخاص في هذه المصلحة أو الشركة، وعندئذٍ تنظر اللجنة النظرة الشاملة المحيطة، وتعمى عن التفاصيل، فتتضح أمامها الأهداف، ثم تعين هذه الأهداف الطرق إلى الإصلاح، كما أن الشخص الغريب يستطيع إصلاح الحياة الزوجية أكثر مما يستطيعها الزوجان.

والعبرة لنا، لكل فردٍ منا، أن نراجع حياتنا كما لو كنّا غرباء، نسقط التفاصيل ونبرز الجملة، أي ننظر النظرة الشاملة لحياتنا، نظرة الغريب الذي لا يرى الأجزاء، وعندئذٍ تتضح لنا الأهداف التي نصحبها إن كانت مخطأة، ثم نعين الوسائل لتحقيقها.

ومهما ظننت نفسك أيها القارئ أنك حرٌّ قادر على أن تنظر إلى حياتك كلها دون أجزائها، فإنك في الواقع مرتبطٌ بالتفاصيل التي تلبس عواطفك وتشترك بالصحيح والزائف من الانفعالات والأطماع والعادات التي تربك وتفسد حكمك على الأشياء وتزيف فلسفتك عن الحياة.

ولكن من أين نأتي بهذا الغريب الذي ينظر النظرة الشاملة لحياتنا؟ الجواب أننا نستطيع أن نكون نحن هذا الغريب.

وذلك بأن نترك أعمالنا التكرارية التي سرت بقوة ما فيها من العادة في عروقنا وأصبحت جزءاً من فسيولوجية أجسامنا وكيان نفوسنا، ونقصد إلى مصيف أو مشتي، وننفرد في خلوة، بل في خلوات، فإن البعد عن مكان أعمالنا يغيّر بعض الشيء من عواطفنا، ثم الخلوة تتيح لنا التأمل النزيه لحياتنا، فنعرض لماضيها وننتقد، ونفكر في أهدافنا ونبني وتنتأمل ونفكر، كما لو كان أحدنا مهندساً يضع «التصميم» أو التخطيط لبناء مسكن أو معهد.

وكما أن المهندس قبل أن يخط خطأ يسأل: ماذا يُراد من هذا المنزل وهذا المعهد؟ أي ما هو الهدف من البناء؟ كذلك نحن نسترشد بالهدف فنسأل: ماذا نريد من حياتنا؟ وعندئذٍ نفلسف.

يجب أن نراجع حياتنا

وفلسفتنا هنا هي مجموعة من الآلام لأخطائنا في الماضي والأفراح لتصحيحاتها في المستقبل، فإننا نسأل عشرات الأسئلة التي تدخل في صميم حياتنا، لماذا أجمع الثروة؟ ولماذا أتشاجر مع زوجتي؟ ولماذا هذه القضية التي يمكن الصلح فيها بأيسر سبيل؟ ولماذا أهمل أصدقائي أو دراساتي؟ ولماذا الخمر؟ ولماذا التعب في بناء مسكن بالديون؟ وهل أنا مؤمن بهذا المذهب السياسي أو غير السياسي؟ وبماذا أؤمن؟ ولماذا للناس مكاتب في بيوتهم وليس لي مكتبة؟

أجل، علينا جميعاً أن نراجع حياتنا بالخلوة، وننتقدها كما لو كنّا غرباء عنها.

الفنُّ من الدين

قرأتُ في إحدى الصحف أن المطربة فايِزة أحمد ستغني أغنية جديدة تقول فيها:

عمرك أطول من عمري
مش عارفة أقول إيه ثاني
وانت بتنطق بالكلمة
كانت لسه على لساني.

وتقول الصحيفة: إن الذي ألَّف هذه الأغنية هو الأستاذ سيد مرسى، وإن ملحنها هو الأستاذ بليغ حمدي.

وقد وقفت عند هذا الخبر أتلبث وأتأمل في هذا المجهود، يبذله ثلاثة من الفنانين؛ واحد يؤلف هذه المعاني المنهارة المائعة الخائرة، والثاني يلحن، والثالث يغني، ثم الجمهور يسمع.

وأعظم ما يكون الإيحاء في قوته هو وقت الاستماع إلى الغناء؛ فإن اللحن يسري في نفوسنا ويغمرنا بالمعنى، وعندئذ تكون له قوة تنويمية؛ ولذلك كثيرًا ما نساير اللحن فنغني على إيقاعه، ونصعد ونهبط على نغماته، ثم تستقر في نفوسنا كما لو كانت عقيدة أو إيمانًا.

ولا تظن أيها القارئ أنني ألوم هؤلاء الثلاثة من الفنانين على عنايتهم في اختيار هذه المعاني وتلحينها وغنائها، فإن أقلَّ ما يستطيعون أن يعتذروا به أنهم شعبيون، وأن هذه المقطوعة تمثل ذوق الشعب ومستواه الفني، وأنهم إذا ما ارتفعوا عن هذا المستوى فلن يجدوا الاستجابة من الجماهير المستمعة أو على الأقل لن يجدوا الاستجابة المنشودة.

وهم صادقون في هذا الاعتذار إلى حدٍّ كبير.

ذلك أن الإحساس الفني ينبع من الشعب، ولو أن شعبنا كان قد تغير في نظرتة للحياة والمجتمع والأخلاق لتغير الفنانون أيضًا.

ولكني أسارع إلى القول بأي مع ذلك أجد أن الجمهور قد تغير، وأن تغيره قد أحدث بعض التغير في فنوننا جميعها، بدليل القصص الجديد الذي يدعو إلى الحب، وبدليل الموسيقى العالمية التي أصبح جزء كبير من الشعب يسيغها ويطلبها، وبدليل العدد الكبير من الأغاني الجديدة التي تحمل المعاني الإنسانية، وأخيرًا بدليل فن الرقص البار الذي يتعثر الآن في خطواته، ولكنه سوف يستقيم ويتجه الوجهة الصحيحة في المستقبل، وأعني الرقص الذي يحمل الراقصة إلى أن تنتظر إلى أعلى وليس إلى أسفل.

والقاعدة الأصلية التي يجب ألا ننساها هي أنه من العيب أن نُقحم الألحان الجديدة أو طرق الفن الجديدة على جمهور لم يتجدد، وأعظم ما يدل على أن المجتمع لم يتجدد هو أن الفنون التي يتشوق إليها ويعجب بها لم تتجدد. المجتمع هو الأصل والفنون هي النتيجة وليس العكس.

ولكن مع ذلك هناك تجارب، فإن الفنان الذي تغيرت نظرتة للحياة والمجتمع والأخلاق يمكن أن يؤلف شيئًا جديدًا في الفن يقبله الجمهور، وهو يقبله؛ لأن الفنان على الرغم مما تجدد في نفسه لا يزال ينتمي إلى هذا الجمهور، وهو في تجده لا يبتعد عنه كثيرًا، كما أن شيئًا من التغير والتجدد قد تحقق في هذا الجمهور نفسه حتى جعله يسيغ الجديد في الفنون.

ومن شأن العاطفة والعقيدة والموقف الاجتماعي أن تترتب كلها وتتخلف عند التغير في المجتمع، وهنا قيمة الفنان الواعي، فإنه يسبق المجتمع ويؤلف له وفق تطوراته الأخيرة، فيجد استجابة.

ونستطيع أن نعبر عما نقصد في كلمات أخرى، فإن التغير الذي يبدأ ضعيفًا في المجتمع، بل يبدأ على غير وعي، يحتاج إلى أن يعبر عنه الفنان ويفصح عنه بألوان من الفنون الرفيعة، فيحيل الإحساس غير الواعي إلى إحساس الوعي الكامل.

والشعب من حيث الوعي الفني طبقات وطوائف، بعضها على وعي وبعضها على نصف وعي، وبعضها بلا وعي، أو يمكن أن نقول: إنه ما دامت هناك طبقات وطوائف اجتماعية، فإنه لا بد أن يوجد تفاوت في الوعي الفني، وهذا ما نجده في بلادنا، بل هو ما نجده أيضًا في جميع الأقطار الأوروبية والأمريكية.

وهذه المقطوعة التي نقلتها في أول هذا المقال إنما ألّفها ولحنها ويغنيها فنانون، جميعهم على غير وعي بالتجديد في الشعب المصري، لا تختلف مما كنا نؤلف ونلحن ونغني

قبل خمسين سنة، وهي عندي برهان على أنه لا يزال في شعبنا طبقات أو طوائف لم تتغير عن موقفها من الحياة ونظرتها للمجتمع والأخلاق منذ خمسين سنة.

إن جان كوكتو، الأديب الفرنسي العظيم، يقول: إن الفن من الدين، والمتأمل لهذه الكلمات العذبة لا يتمالك الإحساس بالاشمئزاز من هذه المقطوعة التي أشرت إليها، ولكن كوكتو عندما قال كلماته هذه إنما كان يعبر عن إحساس اجتماعي لطائفة متعلمة مثقفة في فرنسا أو في أوروبا، هي بالطبع غير هذه الطوائف المجرمة التي تؤيد الحكومة الفرنسية في توحشها في الجزائر وقتلها للنساء والأطفال والرجال من أبناء الجزائريين الذين لا يطلبون غير استقلال بلادهم؛ ذلك لأنه إذا كان الفن من الدين، كما يقول كوكتو، فإن الإنسانية أيضًا من الدين، بل هي أولى.

ومن أحسن الكلمات التي عثرتُ عليها في التوراة قوله: إن داود النبي كان يرقص للرب. ومن أحسن ما يُرى في كنائس أوروبا تلك الموسيقى الإلهية التي تنبع من الأرغن وفق الألحان الكنسية: موسيقى دينية.

«الفن من الدين» كلمات عذبة تكاد تكون قدسية، أحب لو أن كل فنان في مصر تذكرها وعمل بها، وأزيد عليها أن هدف الفنون جميعها حتى الموسيقى هو الأخلاق، فإذا عمل الفنان بإحساس الدين فإنه يهدف، من فنه، ومن حيث لا يدري، إلى الأخلاق، فلا يؤلف مثل هذه المقطوعة التي أشرنا إليها، ولن يلحنها ولن يغنيها؛ لأن إحساسها ليس دينيًا وهدفها ليس أخلاقيًا.

ولهذا السبب وحده لا يمكن أديبًا أن يقول: إنه سيسغ الأشعار التي ألفها أبو نواس؛ إذ إننا نسأله عندئذٍ: ما هو هدفها الأخلاقي؟

وهل كان إحساس مؤلفها دينيًا حين نظمها؟

ونعود إلى شبابنا الثلاثة الذين ألفوا هذه المقطوعة التافهة التي نقلتها في أول هذا المقال.

إنهم في إحساسهم الفني يمثلون طائفة من الشعب لم تتجدد ولم تتطور منذ خمسين سنة، وهذه الطائفة نفسها هي التي تحب رقص البطن، فهل نقدم لها ما تطلب؟ الجواب: لا، ولكننا يجب ألا نبتعد عنها كثيرًا بحيث لا تنفر مما نؤلف لها، فلا نجاريها في الميوعة والانهيال، ولكن لا نرتفع بها كثيرًا إلى ما ينأى عن إحساسها، أي إننا نحتاج معها إلى التسوية والمصالحة.

ولكنها تحتاج قبل هذا وبعد هذا إلى أن يتغير المجتمع في نظرته للحياة حتى تتغير عواطفه، وعندئذٍ تتغير موسيقاه وأغانيه وقصصه.

الشباب والفنون الجميلة

من أحسن العلامات التي تبعث التفاؤل والأمل في الشاب أو الفتاة أن يهوى كلاهما الفنون الجميلة بصورها وأشكالها المختلفة في سنٍّ مبكرة، والشاب الذي يشرع عقب المراهقة في البحث عن دواوين الشعر ويحاول نظم الأشعار، وكذلك الفتاة التي ترسم أو تزور المتاحف والمعارض وتهتم بالموسيقى؛ كلاهما يبدأ الحياة العاملة وهو مزود بالذوق الفني الذي سوف يلزمه طيلة حياته.

واشتغال الشبان والفتيات بالفنون الجميلة هو استمتاع سامٍ، يزيد الحياة خصوبة ويفتح الأبواب الجديدة لدراسات فنية مختلفة، ويغير القيم الاجتماعية، ويحثُّ على بحثها والتنقيب عن حقائقها؛ إذ ليس من المعقول أن ينشد الشاب الجمال في نظم الأشعار وبناء الخيال على المعاني الفنية التي اكتسبها عقله من الدراسات الفنية، ثم يرضى بعد ذلك عن الواقع القبيح من فقر وقذر وجوع وحرمان.

ذلك أن الاشتغال بالفنون الجميلة يجعله يفكر في الاقتصاد والاجتماع؛ لأنه لا يطبق المقارنة بين الواقع المؤلم وبين الخيال الفني السامي، والفنون تحفل بالثراء اللفظي، وهو ثراء يزودهما بموسيقى النظام، وأشعار بلا موسيقى لا قيمة لها، وكلمة «شعر» تعود إلى أصل سامي قديم وهو «شير» بمعنى غناء. فالشعر غناء وإيقاع، أي موسيقى.

وليس بعيداً أن تنتهي هواية التأليف للشعر والقصة، أو هواية الرسم أو الموسيقى إلى تبريز في مستقبل العمر عندما يأخذ النضج والإتقان مكان التجارب الأولى المتعثرة. ولكن ليس هذا قصدنا من هذه الكلمة الموجزة، إنما القصد أن نعكس على حياة الشباب من الجنسين مرانة الفن والنزوع إليه والتمرس بأهدافه، أو بكلمة أخرى نتمرن على الفنون لترقية واقع حياتنا.

وكان يجب أن نذكر أن كل مهارة تحتاج إلى تدريب ودراسة ومثابرة. ولذلك يجب ألا ينسى الشاب أو الفتاة التعب والعرق، يبدأ كلاهما بشراء كتب الفنون ودراستها مع المقارنة والنقد، ثم محاولة التأليف مع الرضا بنبذ ما يؤلفه أحدهما إذا لم يكن على المستوى العالي، فإن أسوأ ما يقع فيه المبتدئ أن يرسم صورة أو ينظم مقطوعة أو يؤلف قصة أو نحو ذلك من المحاولات الفنية، ثم يعتقد أن ما أنجزه يعدُّ في قمة الفن، ويحرص عليه ويطبعه وينشره، مع أنه لا يستحق النشر، وليس كل منّا قادرًا على أن يكون فنانًا، ولكننا جميعًا قادرون على أن نتذوق الفنَّ وننتفع به في التسامي بأذواقنا وأنفسنا وتطوير حياتنا.

الفنُّ الجميل لرجل العلم

إنني أرثي للعقلاء الناجحين.

ذلك أنهم يتخصصون في الطب، ويمتازون فيه فنًّا وعلمًا، ويجنون منه ثروة عظيمة، وهناك كذلك مهندسون أو محامون أو معلمون وأساتذة في الجامعة يتخصص أحدهم في الفيزياء والآخر في الكيمياء والثالث في الأدب والرابع في اللغات، ولكن هذا التخصص الذي يجعلهم يتعمقون دراسة معينة يحول بينهم وبين الاستيعاب والاحتواء للثقافة، فهم مثلاً يهملون الفنون الجميلة، فتتقص بذلك سعادتهم في هذه الدنيا؛ لأنهم يحيون حياة هزيلة ينقصها ثراء الفن، وإلى هؤلاء أنقل أسف «داروين» الذي كتب هذه الكلمات التالية وهو في الستين:

كنت إلى سن الثلاثين أو ما يزيد عليها قليلًا أجد في قراءة أشعار ملتون وجراي وبيرون ووردزورث وكوليرج وشيلي لذة عظمى، بل إنني حتى كنت تلميذًا بالمدرسة كنت أجد طربًا عميقًا في شكسبير، وخاصة في مسرحياته التاريخية ... وكنت أجد هذا الطرب كثيرًا في الرسوم الفنية وأكثر في الموسيقى، ولكني الآن ومنذ سنتين لا أطيق قراءة سطر من الشعر، وقد حاولت أن أقرأ شكسبير فوجدته من المساخة بحيث بعث في نفسي غثيانًا، وكذلك لم أعد أسيغ الصور الفنية أو الموسيقى، ولا يزال عندي بعض الإحساس للمناظر الموفقة، ولكنها لا تحدث لي تلك اللذة الأنيقة التي كنت أحسها قبلاً ... ويبدو لي كأن عقلي قد استحال إلى آلة لطحن الحقائق واستخراج القوانين العامة منها ... ولو أنني كنت قادرًا على أن أعيش حياتي مرة أخرى لعنيت بأن ألزم قاعدة هي أن أقرأ بعض الأشعار أو أستمع إلى الموسيقى مرة كل أسبوع على الأقل؛ إذ إن المرجح أن أجزاء

دماغي التي خمدت بالإهمال كان يمكن أن تبقى على نشاطها بالاستعمال، أجل، إن فقدانني اللذة من هذه الفنون هو فقدان للسعادة، بل قد يكون في هذا فقدان ضرر للتفكير، والمرجح أن هناك منه ضررًا للأخلاق؛ لأن الناحية العاطفية في طبيعتنا تضعف بهذا الإهمال.

وقد تأملت هذه الكلمات التي كتبها داروين يرثي بها لنفسه حين وجد بعد أن تقدم في السن أنه لم تعد له قدرة على تذوق الفنون، لا شعر ولا موسيقى ولا غناء ولا رسم ولا تمثال، وعلل ذلك بأن انغماسه في جمع الحقائق وترتيبها واستخراج النظريات العلمية منها، هذه كلها قد عملت على تجميد عواطفه، ثم صرح بأنه بهذا التجميد للعواطف، فقد فقد شيئاً كبيراً من السعادة، كما أنه أضرّ بتفكيره وبأخلاقه.

فأما السعادة فكلنا يسلم بأن النقص في الإحساس الفني ينقص السعادة؛ لأننا عندئذٍ لا نحس الارتفاع النفسي ولا نفهم آية القرآن: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ حين نقف ونتأمل جمال الشفق أو روعة القمر، هذه الآلة التي أعجب بها جوتيه أديب ألمانيا العظيم. وأما الضرر بالتفكير فلأن الفنون تنزعها من الخاص إلى العام، ومن الزائل إلى الخالد، وعندئذٍ نتعود في البحث العلمي وفي أسلوب عيشتنا، تلك النظرة الاستيعابية التي نكتسبها من التأمل الفني.

ولكن أعظم الضرر الذي يقع بنا عندما نهمل الفنون أخلاقي، ذلك أن أخلاقنا لا تسمو إلى مستوى التألق والجمال ومعاني الشرف والشهامة، والأخذ بالقيم النبيلة في سلوكنا وعاداتنا الاجتماعية، إلا إذا كنا على إحساس فني، لا نؤدي عملاً ولا نعامل إنساناً ولا ننتج سلعة، بل لا نعيش إلا ولنا مأرب فني من كل ذلك، ننشد الجمال ونعالج القبح حتى يجمل.

ولذلك نستطيع أن نقول: إن الفضيلة فضيلة؛ لأنها جميلة، وإن الرذيلة رذيلة؛ لأنها قبيحة، بل إن هذا التعريف هو خير ما نمتحن به أخلاقنا، وأيضاً ما نزمه فيها بحيث نرفض كل «فن» لا يعمل للحق والفضيلة؛ لأنه غير جميل.

التثقيف الذاتي للشبان

التثقيف على الدوام ذاتي، كما أن هضم الطعام ذاتي. فأنا لا أستطيع أن أهضم لك طعامك؛ لأن هذا الهضم يتوقف على ذوقك في اختيار الطعام وعلى كفاءتك في هضمه، وكذلك الشأن في الثقافة؛ فإنك أنت الوحيد في اختيار ما تحب ونبذ ما تكره، وهذا بالطبع تابع لكفاءتك في الهضم والتمثيل.

ولكن كما نستمتع إلى نصيحة الطبيب في الاختيار الحسن للطعام الصحي، كذلك يجب أن نسأل ونستمع ونستشير بشأن الثقافة السليمة، ويجب أن نذكر أن الإحساس الثقافي هو في النهاية إحساس اجتماعي، بل إن الفهم نفسه اجتماعي، ولو أنك قد قضي عليك بأن تحيا وحيداً في جزيرة نائية ليس بها ناس لما عنيت بأن تقرأ كتاباً، ولما نما ذكاؤك وتدرج إلى الفهم الشامل والرغبة في البحث والتنقيب.

ولهذا السبب يجب أن نُعدَّ الجريدة اليومية الأساس الأول للثقافة؛ إذ هي تصل بيننا وبين المجتمع، مجتمع بلادنا ومجتمعات الأقطار الأخرى، أي إنها تصل بيننا وبين الإنسانية، وهذا الاتصال يجب ألا ينقطع؛ إذ إننا لا نستطيع الاستغناء عن جريدة الصباح إلا بمقدار استغنائنا عن الفطور، بل هي أخطر قيمة من الفطور، هي غذاء إنساني على الرغم مما يستقبح فيها أحياناً من نزعات أو أخبار.

والثقافة ضرورية لكل شابٍّ لأنها تكسبه إحساس النمو كما تعين لحياته القصد، فإننا ننمو كل يوم بما نقرأ وندرس، كما أننا نؤلف من دراستنا أهدافاً قد تتغير من وقت لآخر، ولكنها تصوب عقولنا إلى ما هو أعلى منّا، ترفعنا من همومنا الشخصية الصغيرة إلى اهتمامات بشرية عالمية، فنحسُّ عندئذٍ الإحساس الديني.

وقد يقال: إن المدارس والجامعات تعلمنا وتثقفنا، وهي كذلك بلا شك إلى حدٍّ ما، ولكن ليست هناك حكومة على وجه الأرض تسمح لمعلميها وأساتذتها بأن يعلموا التلاميذ

أو الطلبة تلك المعارف التي تخالف أو تناقض الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي لهذه الدولة؛ ولهذا السبب لن نجد الثقافة الحرة إلا في مؤلفات الأحرار الذين يؤلفون لغير المدارس والجامعات، وعليك أن تذكر أن أعظم المؤلفين الذين غيروا هذه الدنيا وارتقوا بالفكر البشري، مثل داروين وفولتير وروسو وتولستوي وبرناردشو ونيتشة وعشرات غيرهم، قد قاطعتهم الجامعات وعاقبت المدارس التلاميذ الذين ضبطوا متلبسين بقراءة مؤلفاتهم.

فلا تقل — أيها الشاب — إنك تعلمت من المدرسة بما يكفيك، ولا تقل: إن ما حصلت عليه من ثقافة جامعية يغنيك عن الدرس بعد تخرجك.

بل أزيد على هذا: وهو أن ما نحصل عليه من المدارس صغير محدود، وما نحصل عليه من الجامعات إنما نتخصص فيه في فنٍّ أو علم، ولكن الثقافة عامة، تطالب المهندس بأن يعرف الفلك، كما تطالب الطبيب بأن يدرس الأدب والفلسفة، وتطالبنا جميعاً بأن نبقي يقظين طيلة حياتنا بأن ندرس كل ما يتصل بخير الإنسانية، وخير الإنسانية هو الدين في صميمه ولبابه وأساسه.

ولذلك يجب أن نخص مكتبة البيت بمبلغ شهري ننفقه على شراء الكتب، ويجب أن نشترى الكتب ولا نستعيرها من أحد الأشخاص أو إحدى المكتبات؛ ذلك لأن ما نؤديه من ثمن للكتاب يبعث فينا إحساس الواجب السيكولوجي بضرورة قراءته، ثم إن القراءة الناجحة تحوجنا إلى أن نقرأ بالقلم، نكتب على الهوامش ونعلق، ولا نستطيع ذلك في كتاب مستعار.

ابداً الآن — أيها الشاب — في تخصيص جزء من دخلك الشهري لشراء الكتب، وجلدها أحسن تجليد، واشترِ الرفوف الجميلة لها، ولكن لا تسرف في ذلك لئلا يعود اهتمامك بالكتب اجتماعياً غير ثقافي، أي إنك تقتنيها للفخر والأبهة أمام الضيوف وليس للدرس والنصح. ثم اذكر أن الكتب أصدقاؤك، فلا تقتن منها ما يغشك في هذه الصداقة، وليس هناك شك في أن هناك كتباً سيئة، بل غاية في السوء، مثل دواوين ابن الرومي وأبي نواس، فإننا نخجل من ترك هذه الكتب لأبنائنا وبناتنا يقرءونها؛ ولذلك يجب أن نخجل من أن نقرأها نحن أيضاً، وإن كنتُ أعتقد أن الرجل الناضج الذي يحتاج إلى زيادة بصيرته بالتاريخ يحتاج إلى قراءتها، يقرأها للتاريخ وليس للفن.

امتنح نفسك وكتبك من وقتٍ لآخر، هل أنت ترتقي بقراءتها فتزداد فهماً للعالم وبصيرة للكون وزيادة في الإحساس الإنساني؟ وهل أنت أكثر نضجاً سيكولوجياً مما كنت قبل قراءتها؟

هذا الامتحان يجب أن يتكرر حتى لا تسترسل في سخافات وعقائد وخرافات يزعم غيرك أنها حقائق، مع أنها في صميمها تفاهات يأنف منها الذهن البشري السليم. كُن رجلاً جاداً وادرس الثقافة الجديّة، ولا تستمع إلى أقوال المغفلين من أنه ليست هناك علاقة بين الفنون والأخلاق، فإن غاية الفنون العظيمة هي الأخلاق العظيمة، ولا أنسى هنا أننا قد نختلف على معنى الأخلاق العظيمة، ولكن هذا موضوع آخر، ولكني أصارحك بأنني ما رأيت رجلاً قط يحب أبا نواس وابن الرومي، وينشد أشعارهما في كل مجلس ومجال، إلا وهو متلبس برذائلهما، وهذا هو ما ننتظر؛ لأن الخيال الذي تبعته أشعارهما في الفسق يعود لأقل فرصة تسنح إجراماً.

فارتفع برأسك ولا تغذه إلا بأشرف الأفكار وأنفعها.

وقد يكون من الحسن أن تدرس لغة أجنبية إذا شئت الإحاطة والاستيعاب والشمول للثقافة العامة، ولكن إذا وجدت هذا، في ظروفك القائمة، محالاً أو شاقاً فلا تيأس، فإن الكتب العربية التي تخرجها في أيامنا، القاهرة وبيروت ودمشق، تحفل بالكثير مما ينفع ويرفع كل راغب في تثقيف نفسه.

وانشد في ثقافتك طيلة حياتك دراسة الفلسفة، كما يجب أن تحتاط من الأوهام الفلسفية بدراسة علم مادي يجرك إلى الأرض ويربطك بالحقائق؛ إذا استهوتك الفلسفة إلى التحليق في أجواء الأوهام، وفصلت بينك وبين المجتمع والناس والمواد.

إن الفلسفة ليست شيئاً في الهواء أو الخواء، وإنما هي مجهود متواصل كي نحيا بها الحياة الإنسانية الفهمية الذكية، أجل، الحياة الفلسفية.

كيف نتعلم لغة أجنبية؟

عقب الهجوم الغادر على بلادنا من دولتي الخسة والدعارة؛ بريطانيا وفرنسا، عمّ الشعب سخطٌ حمل بعض الكتّاب على أن يدعوا إلى مقاطعة اللغتين الفرنسية والإنجليزية. وليس شك في الشرف الذي انبعث به هؤلاء الكتّاب إلى هذه الدعوة؛ إذ هي فورة الاستنكار وغضب الشهامة وإحساس الغيظ مما أنزله المجرمون في بورسعيد وسائر بلادنا.

ولكن مع ذلك يجب أن نضع العقل والمنطق فوق القلب والعاطفة. ذلك أن اللغة الإنجليزية هي لغة أمريكا كما هي لغة بريطانيا، ثم هي تحتوي ثقافة بشرية تُعدُّ من أعظم الثروات الذهنية التي يملكها الإنسان، وكذلك الشأن في اللغة الفرنسية، لغة بلجيكا وبعض سويسرا، ولا يمكن مصرّياً أو عربياً أن يتعامى عن قيمة ما تحوي هاتان اللغتان من أدب وعلم وثقافة.

ثم بعد ذلك يجب أن نقول: إننا نكره الحكومتين ولكننا لا نكره الشعبين في كلٍّ من فرنسا وبريطانيا، وقد تأتي يوماً ما في المستقبل القريب، حكومة اشتراكية في فرنسا أو بريطانيا فنجد عندها الصداقة والوفاء بدلاً من الخيانة والغدر من الساسة المحافظين أو من دعاة الاشتراكية السوداء.

واللغتان الإنجليزية والفرنسية هما لغتا الرجال والنساء والأطفال، بل لغتا ألف سنة مضت وألف سنة قادمة أو أكثر، وحققنا الحاضر على حكومتَي هذين الشعبين يجب ألا يحملنا على كراهة هاتين اللغتين.

واللغات الأجنبية التي يجب أن نتعلمها في نهضتنا الجديدة تتجاوز هاتين اللغتين إلى اللغات الصينية والهندية والروسية والإيطالية والألمانية، فإنها لغات متمدنة تحوي الكثير من الآداب والعلوم.

وقد أصبحت الصينية وهي لغة ٦٠٠ مليون إنسان، أي ربع الدنيا، من اللغات السهلة التي لا تحتاج إلى مجهود كبير يزيد على ما نذل في تعلم الإنجليزية أو الفرنسية؛ وذلك لأنها اتخذت الحروف اللاتينية أو ستخذها قريباً بعد أن قررت حكومتها ذلك.

ونحن في حاجة إلى تعلم اللغات الأجنبية، وستبقى حاجتنا إلى هذا التعلم ضرورة محتومة نحو ربع أو نصف قرن؛ لأن لغتنا بحروفها الحاضرة لا تتسع للتعبيرات العلمية، وحتى بعد أن نأخذ بالحروف اللاتينية سنحتاج إلى تعلم اللغات الأجنبية الحية المتمدنة لاستكمال ما ينقصنا من ثقافة وعلم وأدب.

وأول ما يجب أن نلتفت إليه في تعلم لغة أجنبية أن نراعي هذه القواعد الثلاث التالية التي اعتمدتها أنا نفسي في تعلم الفرنسية والإنجليزية:

القاعدة الأولى: ألا ندرس اللغة كما لو كانت لغة فقط، وإنما ندرس موضوعاً، أي مادة علمية أو أدبية بلغة أجنبية، كأن ندرس الكيمياء أو الهندسة أو البيولوجية أو الصحافة الفرنسية؛ إذ يجب ألا ندرس موضوعات متفرقة بزعم أننا نحيط بمعانٍ مختلفة، فإن اهتمامنا يتفرق، أما عندما نحب موضوعاً معيناً وندرسه بلغة أجنبية فإن اهتمامنا يتركز على الموضوع، فلا ننسى تعابيره وكلماته، كما أننا حين نكتبُ عليه ندرس تفصيلاته.

القاعدة الثانية: أننا نجعل الجملة وليس الكلمة أساس التعلم، والفهم هو في النهاية فهم الجملة وليس فهم الكلمة، والكلمة المفردة في اللغات الأوروبية أكثر مما في لغتنا يختلف معناها باختلاف حروفها الملحقة بها في الجملة.

القاعدة الثالثة: أن نعلم إلى كتاب مترجم عن الفرنسية مثلاً فنقرأه ونفهم موضوعه واتجاه مؤلفه في العربية، ثم نقتني الأصل الفرنسي فنقرأه، فإن تداعي المعاني ييسر علينا استذكارها، فلا ننساها، ويمكن الصحفي المبتدئ أن يفعل مثل ذلك بأن يقرأ الأخبار في الجرائد الأجنبية، فإن اشتغال ذهنه بالعناوين والأخبار والمعاني التي يهتمُّ بها يجعلها تتفتح أمامه وهو يقرأ الصحيفة الأجنبية، فيسهل الاستذكار.

ومع مداومته قراءة أو بالأحرى تصفُّح الجرائد الأجنبية يحمل نفسه على شيء من الدراسة الجدية في كتاب يقرأه مترجماً إلى العربية أولاً، ثم يقرأه في اللغة الأصلية التي ترجم عنها ثانياً.

وخير الكتب المترجمة التي تجدي هنا أعظم الجدوى هي كتب الدين؛ لأن الترجمة فيها حرفية، وإن تكن أحياناً ركيكة، ومرجع ركاكتها هو التزامها الحرف، وهذا ييسر فهمها وإن نقص جمالها.

كيف نتعلم لغة أجنبية؟

وربما يكون كتاب ألف ليلة وليلة من أحسن الكتب في تعلم الإنجليزية أو الفرنسية، نقرأه أولاً بالعربية، إذا لم نكن قد قرأناه في صبا، ثم نقرأه في اللغة الأجنبية. أما نحو اللغة الأجرومية فيجب أن يكون آخر ما يتعلمه من يرغب في إتقان لغة أجنبية؛ وذلك لأن النحو والصرف هما في صميم معناهما فلسفة اللغة، وقد تكون هذه الفلسفة سيئة، ولكن يراد بها مع ذلك إيضاح المنطق في التعبير، وهذا شأن يجب تأخيره وليس تقديمه للمبتدئ.

ولكن يجب ألا ننقع بالרטانة التي نتطرف بها في حديثنا ثم نكون جهلاء نعرف جهلنا ونحسه في نفوسنا، فإن تعلم اللغة الأجنبية ليس للتطرف والزهو والرتانة وإنما هو للعلم والأدب والثقافة؛ ولذلك يجب أن نثابر على الاستنارة بقراءة كتاب أو كتابين كل شهر في الشؤون السياسية والعلمية والأدبية التي يعالجها مؤلفها بروح الجد والخدمة للقراء، وفي أوروبا مئات ممن يهدفون إلى هذا الهدف النبيل.

وبالطبع لا يمكن المبتدئ في تعلم اللغة الأجنبية أن يستغني عن معلم أو مدرسة يأخذ منهما الخطوات الأولى في فهم الحروف ونطقها، وإذا كان شاباً حوالي العشرين، فإنه يقنع بنحو شهرين على يدي معلم، ثم يشرع في «التعليم الذاتي» كما وصفنا طريقته. وأسهل الكتب في تعلم اللغة الأجنبية هي كتب العلوم، بشرط أن يختار المتعلم علماً يحبه ويحوي صوراً وأشكالاً.

ومن الخطط النافعة أن نلتزم أحد المؤلفين، فنقرأ كل مؤلفاته؛ ذلك لأن المؤلف له عبارات وكلمات تتكرر، كما أن له أسلوباً لا يتغير، فيسهل لذلك فهمه على المبتدئ. إن هناك من يزعمون أن المستوى الثقافي في الصحافة المصرية قد انحط وأن كاتب المقال المدروس قد اختفى للاستغناء عنه.

وعندي أنه إذا كان في هذا القول شيء من الصحة، فإني أعزوه إلى النقص في درس اللغات الأجنبية، وأيضاً إلى تقصير الصحف في إتاحة الفرص لمحريها ومخبريها حتى يتعلموا، وقد قلت: «النقص»؛ لأن كليات الصحافة عندنا تدرس اللغات الأجنبية، ولكن في نقص.

والصحفي المرشد أكبر من الصحفي المخبر، ونحن نحتاج إلى الاثنين، وإن كانت الصحافة الحديثة تقوم وتروج على الخبر، ولكن هناك مزاحمين للأخبار الصحفية في أيامنا، وهم يطلون علينا ويصيحون، بل يصرخون من الراديو والسينما، أما الإرشاد والتوضيح وإخراج المغزى والدلالة فستبقى جميعها من اختصاص الكاتب المرشد المحرر، الذي تحتاج إليه الصحيفة الجادة أو يجب أن تحتاج إليه.

وهذا الكاتب أو المحرر يحتاج إلى دراسة لغة أجنبية دراسة كاملة مستوفاة، والصحيفة الجادة تستطيع أن تكثر من هؤلاء الكتّاب إذا كانت توفد كتابها المخبرين المبتدئين إلى أحد الأقطار الأجنبية حيث يبقى سنة كاملة أو سنتين، يزودها بالأخبار كأني مخبر أجنبي، وفي الوقت نفسه يدرس أحوال الشعب الذي يعيش في صحبته كما يدرس لغته، فالصحيفة هنا لا تخسر شيئاً، بل يجب ألا تكلف زيادة في مرتبه، أو على الأقل لا تكلف زيادة باهظة، وإقامة سنة أو سنتين في فرنسا أو بريطانيا أو ألمانيا أو غيرها تؤدي في النهاية إلى تخريج صحفي ناضج قد رأى العالم من زاوية أخرى غير ما اعتاد في وطنه.

إن اللغة الأجنبية ضرورة لكل مثقف، ويجب ألا نستهن بقيمتها في الثقافة الخاصة فضلاً عن الثقافة العامة، ويجب أن ندعو إلى تعلمها ونيسر ذلك للراغبين فيها.

وأخيراً نحتاج إلى معاجم وافية متقنة رخيصة لا يزيد ثمن أحدها على ثلاثين أو أربعين قرشاً، يمكن المبتدئ أو المتعلم الرجوع إليها وهو واثق بصحة معانيها، وهذه المعاجم للأسف غير موجودة الآن، وتستطيع وزارة التربية والتعليم أن تضطلع بإيجادها.

النمو الذهني للمرأة

لم يعد أحد يقول: إن المكان الأول للمرأة المكان الإلزامي هو البيت؛ وذلك لأننا أصبحنا نقول بشخصية المرأة المستقلة، وأن البيت لم يعد يكفي لنمو شخصيتها أو ذكائها. والمرأة بالطبع في آرائنا العصرية إنسان يستوي بالرجل قبل أن تكون زوجة أو أمًا أو ربة بيت، هي إنسان له جميع حقوق الإنسان، ويجب لذلك أن تتحمل واجباته أيضًا. وإحدى الغايات الكبرى للإنسان أن يكون شخصيته المستقلة وأن يراعي ذكائه بالنمو، ولا يمكن أن ينمو الذكاء إلا في مئات الاختبارات، والبيت بضيق آفاقه التي تحتويها جدرانها لا يتسع لهذه الاختبارات.

وإنما ينمو الذكاء عند المرأة بمثل الوسائل التي تنمو بها عند الرجل، وأولى هذه الوسائل هي العمل المنتج الكاسب الذي يستتبع المسؤوليات، فإن الكسب يحفزنا إلى العمل والاختراع، والإنتاج يملئ علينا مسؤوليات شخصية واجتماعية وثقافية، وهو يضطرنا إلى أن نجتمع بزملائنا وندرس حرفتنا ونعرف ما ترتقي به، وكل هذا يزيد ذكاءنا حدة وفهمًا. إننا حين نقول بضرورة المساواة بين الرجل والمرأة في «الحقوق» الدستورية، كالانتخابات والترشيحات للمجالس النيابية والبلدية، وحين ندعو إلى أن تؤدي المرأة وظائف الدولة أو تعمل في المصانع والمتاجر والمكاتب، نذكر كل هذه الأشياء كما لو كانت حقوقًا فقط قد أنكرناها في الماضي على المرأة، فيجب أن نسلّم بها الآن.

ولكن الواقع أنها ليست حقوقًا فقط للمرأة؛ إذ هي أيضًا واجبات؛ لأن المرأة مثل الرجل يجب أن تكون منتجة للشعب كله، فتؤدي حرفة، وليس شك أن البيت بما فيه من واجبات الأمومة وتربية الأطفال والطبخ وراحة الزوج يعدُّ أيضًا مؤسسة إنتاجية، ولكنه صغير الإنتاج إلى جنب العمل في المصنع أو المتجر.

البيت أمام المرأة المتزوجة هو مكان للعناية بالزوج وبثلاثة أو أربعة أولاد، مجموع مَنْ تُعنى بهم في تهيئة الطعام وتنظيف الغُرف والتربية للأطفال هم أربعة أو خمسة أشخاص، ومن العسف أن نقول: إنه يجب على المرأة أن ترصد حياتها كلها للعناية بأربعة أو خمسة أشخاص؛ لأن حياتها أكبر قيمة من هذا العمل الصغير، ويمكن بتنظيم آخر أن تتم هذه العناية دون أن تستوعب كل حياة المرأة.

إن على المرأة واجبات لنفسها قبل أن تفكر في الواجبات لغيرها، وما كنا نسميه حقوقاً لها يجب أن تسميه هي واجبات عليها؛ لأنها حين تهمل هذه الواجبات وحين يقتصر نشاطها على شئون البيت الصغيرة يتبلد ذهنها وهو أشرف وأثمن ما تملك في هذه الدنيا، ولا يحرك الذهن إلا الاهتمامات الكبيرة التي تشترك بالمجتمع والثقافة والعلم والحرفة والفلسفة والدين، هذه الاهتمام تجعل الذهن يقظاً يتدرب كل يوم على الفهم ويزداد نمواً في المعارف، كما تزداد الشخصية إحساساً بالمسؤوليات التي ترفعها من تفاهة العيش إلى جلالته الحياة.

تفاهة العيش في البيت بالكنس والطبخ والغسل وضرب الأطفال، وجلالة الحياة بالاشتباك في شئون المجتمع الحيوية وسياسة الدنيا ووسائل الارتزاق ومعاني الحرية، ومحاولة إيجاد فلسفة عملية نعيش بها ونبحث بها المشكلات الاجتماعية والإنسانية. وكثيراً ما أقعد إلى سيدة عاشت في مملكة البيت وأتحدت إليها، فلا أجد لها من اهتمامات سوى أثمان البقول وحوادث الخدم، والزواج والطلاق والفساتين الجديدة، أجد عقلاً تافهاً قاصراً قد حدت منه حدود البيت واهتماماته الصغيرة، وهذا بخلاف ما نجد حين نقعد إلى سيدة تؤدي عملاً خارج البيت وتنتج به وتكسب منه، فإن إحساسها الاجتماعي عميق، وذكاؤها مدرب وأفاقها بعيدة، وطموحها يوغل في المستقبل، وهي تتحدث عن الشئون العامة وتُعنى بقراءة الصحف وتتبع السياسة الداخلية والخارجية، هي عقل ناضج يعرف قيمة الدرس، وهي تقتني الكتب وتؤدي أثمانها الغالية في غير أسف؛ لأن نمو ذهنها يؤلف جزءاً من برنامج حياتها، وهي حين تربي أطفالها تهدف إلى أهداف اجتماعية عرفتها بخبرتها في المجتمع، وهي أهداف لا تعرفها امرأة البيت.

وقد يقال هنا: إنه يمكن الجمع بين العمل الخارجي الذي يربي الزوجة ويزيد كسبها وبين واجبات البيت، وهذا صحيح إذا كانت الزوجة أو الزوجان على ثراء يمكّنها من استخدام الخدم الأكفاء الأمناء، أو إذا كان البيت مجهزاً بتلك الأجهزة العصرية التي تجعل واجبات البيت خفيفة، تؤديها ربة البيت بعناء قليل في وقت قصير، مثل جهاز التثليج

النمو الذهني للمرأة

لحفظ مئونة البيت نحو أسبوع بلا حاجة إلى شرائها كل يوم، وأيضًا بالطبخ على الأجهزة الكهربائية، وكذلك الغسل والكنس، وهذا إلى التليفون الذي يصل بين البيت والسوق ويؤدي كثيرًا من أعمال الخادم.

بمثل هذه المجهزات تستغني الزوجة عن الخدم ولا تحسُّ تعبًا كبيرًا لتأدية الواجبات المنزلية، ويمكنها أن تؤدي عملها الخارجي وعملها المنزلي معًا بلا عناء، أما الأطفال فلهم المحاضن إن كانوا دون الخامسة أو السادسة، ثم الرياض إذا تجاوزوا ذلك، ثم ينتظمهم التعليم الابتدائي.

ولكن للأسف ليس هذا النظام قائمًا في مصر.

وخير منه لبلادنا أن نجعل الأعمال الشاقة في البيت تعاونية، فإن مطبخًا واحدًا يمكن أن يكفي السكان في شارع كامل، وكذلك الاشتراك التعاوني في مؤسسة للغسل والكي يمكن أن يغني ربة البيت عن مجهودات فردية كبيرة ... إلخ.

والتعاون هو كلمة المرور للمستقبل، وهو يخفف عناء الفرد؛ لأنه يحيله إلى المجتمع، وبالتعاون تستطيع المرأة أن تؤدي العمل المنتج الذي يكسبها مرتبًا شهريًا حسنًا ويربي ذهنها ويدربه على المسئوليات الكبيرة.

الامتحانات والشهادات

للشهادات المدرسية والجامعية قيمة كبيرة في مجتمعنا المصري ليست لها في التعلم المدرسي أو الجامعي الأجنبي؛ ولذلك نحن لا نزيد على ٢٢ مليوناً، لنا من الطلبة في جامعاتنا الثلاث مثل ما للإنجليز الذين يبلغون ٥٠ مليوناً في ٢٧ جامعة، بل الأغلب أن طلبتنا يزيدون في العدد على طلبة الإنجليز.

وهذا الاهتمام بالتعليم الجامعي لا يهدف منه آباء الطلبة إلى تنويرهم بالعلوم كي يسعدوا بذكائهم ويواصلوا حياتهم الثقافية عقب تخريجهم، وإنما الهدف الوحيد هو حصولهم على شهادة.

ولذلك تكبر قيمة الامتحانات عندنا وتتجاوز حدود التعقل، فإن حرص الآباء على أن يحصل ابنهم على شهادة، يبعث حرص الأبناء على ذلك أيضاً، فيجهدون أنفسهم في الدرس والتحصيل، بل أحياناً يتجاوزون طاقتهم في الاجتهاد والسهر، حتى إذا جاء وقت الامتحان كانت نفوسهم متعبة، بل مرهقة، فلا يحسنون الإجابة، وإذا خالجتهم فكرة الرسوب تولّاهم الوهم والخوف؛ ولذلك كثيراً ما يسيئون التصرف بحياتهم ومستقبلهم. واعتماد شبابنا على الشهادات وخوفهم من الامتحانات، كلاهما يرجع إلى تلك السنين الماضية حين كان الإنجليز لا يأذنون لنا بالتعليم إلا على قدر ما يحتاجون إليه من الموظفين في الحكومة.

فكانت الشهادات للوظيفة ولم تكن للثقافة.

وكانت الوظيفة الحكومية كل شيء، كل الأمل، كل المستقبل أمام الشباب؛ إذ لم يكن هناك طريق آخر للارتزاق، فإن الأعمال الحرة كانت في غير الزراعة معدومة في بلادنا؛ ذلك لأن الإنجليز حرصوا كل الحرص على ألا تؤسس مصنعاً، وبلاد بلا مصانع هي بلاد بلا متاجر.

ومتى خلت البلاد من المصانع والمتاجر خلت من الأعمال الحرة، ومن هنا نشأت لنا تقاليد هي أن الشاب الذي لا يحمل شهادة متوسطة أو عليا هو شاب خائب لن يجد وظيفة حكومية يعيش من مرتبتها، وما دام ليس هناك أعمال حرة من الصناعة أو التجارة فإن خيبته مؤكدة.

وكان هذا المنطق صادقاً إلى وقت قريب.

أمّا الآن فهذا المنطق ليس صادقاً؛ لأن الأعمال الحرة قد توافرت بعض الشيء، وستتوافر أكثر في المستقبل؛ لأننا صرنا نفطن إلى قيمة الصناعة والتجارة، وشرعنا نؤسس ونؤلف الشركات، وليس للشهادات باستثناء الفنية منها أية قيمة هنا في اختيار الموظفين، فالمصانع تحتاج بلا شك إلى المهندسين الفنيين أو إلى غيرهم ممن حصلوا على تعليم جامعي، ولكن الموظفين الفنيين الذين يحملون الشهادات لا يزدون على عشرة في المائة من مجموع الموظفين في المصانع، ولا يزدون على واحد في المائة من مجموع الموظفين في المتاجر أو الشركات.

وفي القاهرة مثلاً مئات المتاجر، وليس بين رؤسائها أو كبار موظفيها أو صغارهم من يحمل شهادة، مع أن مرتباتهم تزيد على مرتبات الموظفين في الحكومة، وكذلك الشأن بدرجة أقل بين موظفي المصانع.

ولم تعد الوظيفة الحكومية مورد الرزق «المحترم» الذي ينشده الشاب الطموح؛ لأنه يجد في العمل الحر، في الشركات أو المصانع أو المتاجر، ما يشبع طموحه ويوسع له في أبواب الرزق أكثر من الوظائف الحكومية.

وهذه الشركات والمصانع والمتاجر لا تسأل حين تطلب العمل فيها ما هي شهادتك؟ وإنما سؤالها: ما هي خبرتك؟ أي الأعمال تحسن؟

وهي في العادة تضعك في الدرجات السفلى من السلم، فإذا أبديت ذكاء ونشاطاً وأخلاقاً رأيت الترقّيات تتوالى عليك بلا حساب، بل رأيت استمساك الشركة أو المتجر أو المصنع بك، خير ضامن لعيشك الهنيء وكسبك الوفير طيلة حياتك.

ولست مع ذلك أنقص قيمة التعليم الجامعي؛ لأن أقل ما يقال فيه إنه تدريب على التحقيق والتمحيص، ثم هو أساس للثقافة في المستقبل.

أساس فقط، ولكنه ليس بناء؛ لأن البناء يأتي بعد التخرج، أي بعد الحصول على الشهادة الجامعية.

ولكن الثقافة أيضًا يمكن تحصيلها بالدرس الحر المستقل الذي لا يحتاج إلى الانتظام في كلية وتأدية امتحاناتها والحصول على شهادة، وهناك آلاف من المثقفين لا يحملون أية شهادة.

وننتهي من هذا إلى القول بأن هذه الحماسة للنجاح في الامتحانات قد أسرف فيها الشبان، وإسرافهم قد بعث فيهم القلق الذي يتجاوز حدود الاهتمام المعقول، فإن الخيبة في الامتحانات ليست خيبة في الحياة، وميدان الأعمال الحرة أوسع وأكثر استيعابًا للموظفين من ميدان العمل الحكومي، وهذه الأعمال الحرة لا تحتاج إلى الشهادات.

فعلى شبابنا أن يجتهدوا الاجتهاد المعقول في الدراسة الجامعية، ولكن عليهم ألا يقنطوا من وعود المستقبل الزاهر إذا رسبوا في الامتحانات، فإن الأعمال الحرة تنتظرهم. إن في بريطانيا ٢٧ جامعة لا يزيد عدد طلبتها على عدد الطلبة عندنا في جامعاتنا الثلاث، بل ربما ينقص، ومعنى هذا أن اهتمام الإنجليز بالتعليم الجامعي أقل من اهتمامنا نحن به، وعلة ذلك أن الأعمال الحرة عندهم كثيرة، وهي لا تحتاج إلى مطالبة العاملين فيها بأية شهادة.

ونحن نتجه نحو هذا المصير، فلنتفاءل ولنتسلح بالشجاعة.

علم النفس على الشاشة البيضاء

هناك اختراعاان، لا أفكر فيهما ولا أتأمل نتائجهما إلا مع الأسف والحسرة:

الاختراع الأول: هو استخدام الذرة، فإن هذه القوة العظيمة التي كان يمكن الإنسان أن يبني منها وينشئ ويعمر قد استعملت للتدمير فقط، ولا يزال العلميون يسيرون في اختراعاتهم عن سبيلها كي يزيّدوا التدمير والتقتيل حتى أصبح النوع البشري مهددًا بالفناء.

والاختراع الثاني: هو السينما، فإنه أعظم قوة جديدة للتربية والتعليم، وما كانت المدارس أو الجامعات أو المعامل العلمية تحتاج إلى إنفاق الشهور والسنين في تعليم الصبيان أو الطلبة مع الألم، يمكن السينما أن تعلّمه في ساعات مع السرور، ولكن الروح الاقتنائية التي تعم مجتمعنا تحمل المتصلين بالسينما، من مؤلفين ومخرجين، إلى أن يهدفوا إلى الكسب، والكسب فقط؛ ولذلك تحتاج السينما والمتصلون بها إلى أن يتقربوا من الجماهير، بل من العامة، بشتى الموضوعات السخيفة أو الوضيعة أو المثيرة، وبدلاً من أن يقود مؤلفو السينما هذه العامة صاروا ينقادون بها، ويسيرون خلف المرضى والشاذين والعابثين بحياتهم، والمجرمين.

وهذه الحال الأسيفة التي ترجع كما قلتُ إلى الرغبة الجامحة في اقتناء المال وجمع الفلوس قد حملت كثيراً من الحكومات على منع الصبيان والمراهقين، إلى سن ١٦ أو ١٨، من الدخول في الدور السينمائية إذا كان الفيلم الذي سيعرض يتناول قصصاً جنسية فاضحة أو قصصاً تشرح الجرائم وأساليب ارتكابها.

ولست أعرف لماذا يمنع الصغار من رؤية هذه الأفلام ولا يمنع الكبار؟ فإن الإيحاء يعم الجميع كباراً وصغاراً وإن تفاوتت درجاته، وقد يكون من الرجال من يبلغ سن

الثلاثين أو الأربعين ومع ذلك تزيد قابليته للإيحاء السينمائي على شاب في العشرين أو الخامسة عشرة؛ وذلك لأن ظروف الأول الاجتماعية قد تعدده لهذه القابلية أكثر من الثاني، وما دما نقول بضرر أحد الأفلام فإننا يجب أن نمنعه عن الجميع.

إن الفتاة وهي تنظر إلى الحوادث الغرامية بين شاب وفتاة تطابق بين نفسها وبين هذه الفتاة الممثلة، ومن هنا اهتمامها، والشاب وهو يرى سير الحوادث بشأن سرقة أو قتل أو نحوهما يطابق بين نفسه وبين هذا الشخص الذي يمثل شخصية السارق أو القاتل، ومن هنا اهتمامه.

والموضوعان اللذان يمتازان بأكبر قوة جاذبة للشبان والفتيات هما الحب والجريمة، بل إن كلمة الحب ليست هنا الأداة المعبرة عما يجري على الشاشة البيضاء، وأولى منها كلمة غرام، فإن في الحب هدوءًا وحنانًا لا نراهما في السينما، ولكننا نرى نارًا واقتحامًا في الغرام. إن القوة الإيحائية في السينما كبيرة جدًا، وهي تعين لنا أسلوب الغرام الاختطافي أكثر مما تعين لنا أسلوب الحب الهادئ الوديع.

والشاب والفتاة كلاهما يحلم بما يرى من المناظر السينمائية، وكلاهما يتأثر بالقوة ويتخذ أسلوبها الجنسي، هذا الأسلوب الذي رأيناه في السينما، وهو أسلوب ينأى عن الواقع وكثيرًا ما يُفسد هذا الواقع.

ولا يمكن السينما أن تعرض علينا في قصصها الغرامية أكثر الحوادث والطوارئ التي تسبق النهاية، والنهاية هي الزواج كما نفهم أو نعتقد أننا نفهم، فنحن نرى الكفاح والمحاولة والإغراء والمنافسة والدسياسة والغيرة تجري جميعها في سلسلة من المناظر والوقائع، ثم تنتهي بالبقاء عشيقين وانتصارهما على سائر الأشخاص والأحداث.

وما نراه إذن هو لقاء بعد هجر، أو مصافاة بعد خلاف، أو عناق بعد جفاء، ومع أن المحبين أو العاشقين يمثلان كل ذلك أمام الجمهور فإن الشاب أو الفتاة يتأثران بهذا السلوك، والفتاة تتأثر أكثر من الشاب، وكلاهما يعتقد ويحلم ويحس أن لذة الغرام تنحصر في القبلية والعناق.

ثم في القبلية والعناق ولا أكثر، وكما قلت: إن الفتاة تتأثر أكثر من الشاب بهذا السلوك لأسباب كثيرة، بل الفتاة المصرية تتأثر أكثر من الفتاة الأوروبية.

فإذا تم الزواج بين هؤلاء المتفرجين من الشبان والفتيات كانت المأساة بسبب ما كانا يريانها في السينما، ولا أقول: إن المأساة تعم الجميع، بل أعتقد أنها لا تعم الأكثرية وإنما الأقلية فقط، ولكنها أقلية غير صغيرة.

تجد الفتاة نفسها بعد الزواج أنها لا تريد من زوجها سوى القُبلة والعناق، ولا شيء سوى القُبلة والعناق، بل هي تشمئز مما يزيد على ذلك؛ لأنها تعودت وساست غريزتها الجنسية على هذا الأسلوب بالمناظر السينمائية التي تكرر هذا الموضوع، وليس هناك واحد من السيكلوجيين لا يعرف هذه المأساة التي يشرحها الزوج وهو يكاد يبكي على بخته السيئ.

إن أعظم ما ترتكبه السينما من إجرام في الغرام أنها تجعل من القُبلة والعناق كل شيء، وهي لا تستطيع غير ذلك، كأن تواصل مثلاً حياة العاشقين بعد الزواج، وتصف لنا السعادة الزوجية بينهما؛ لأن هذه السعادة شيء مبتذل هادئ إزاء الغرام الناري الهائج قبل الزواج.

ولست أقترح علاجاً، والسينما كما قلت هي عرضة للمباراة الاقتصادية الانفرادية، وهي لذلك تطلب الكسب أولاً وليس الخدمة، بل إن الخدمة الإنسانية أو الاجتماعية أبعد ما يفكر فيه المؤلفون أو المخرجون معاً. لقد شخّصت الداء أو أحد الأدواء، ولم أشخص الدواء.

السلوك الزوجي

كما نحن في المجتمع في المدرسة والمصلحة والمكتب والنادي، كذلك نكون في البيت مع الزوجة والأطفال؛ لأن الأخلاق لا تتجزأ، أي إننا لا نستطيع أن نسلك سلوكًا مهذبًا في المجتمع، ثم نسلك سلوكًا وحشيًا في البيت، ولا نستطيع أن نكون أنانيين خارج البيت ثم نكون إثاريين داخله.

والأخلاق تتصل بما يلزمها من اعتياد بالعواطف، أي إننا كما هو شأننا في كل عادة، ولو كانت اختيار لون من الطعام أو الثياب، نحسُّ الألم عندما نحاول وقف العادة؛ ولهذا السبب لكل منّا طريقته في الجدل أو أسلوبه في العمل، أو اتخاذهِ لِرأيٍ معين أو نحو ذلك. كذلك أخلاقنا وأهدافنا في الحياة، لا نحب تغييرها، خاصة أنها، أي الأخلاق، كثيرًا ما تتصل بمذهبنا في الدين، ويكاد التغيير يؤلِّمنا هنا كما لو كنّا نغير ديانتنا، ونحن لذلك ندافع عن أسلوبنا في الأخلاق كما ندافع عن عقيدة عميقة في نفوسنا. ولكننا مع ذلك، ومع الألم، نغير أحيانًا أخلاقنا، كما يغير أحد عاداته في التدخين أو شرب الخمر إذا وثق أنهما مضران.

ولكن الذي يجب أن نثبته أن عاداتنا العامة في المجتمع هي أيضًا عاداتنا الخاصة في البيت، وقلّ أن تجد رجلًا سيئ السلوك مخاصمًا مناكدًا يتسرع إلى الغضب مع زوجته وأبنائه، إلا وهو على هذه الأخلاق أيضًا في المجتمع، أي في المكتب أو المتجر، أو بكلمة أخرى يعامل الرجل زوجته كما يعامل معارفه وأصدقاءه.

عرفت رجلًا كان يسرق شقيقه ويسرق أمه ويسرق مزارعيه، وأيضًا، وهنا العبرة، كان يسرق زوجته؛ ذلك أن السرقة كانت أسلوب حياته في الكسب، ولم يكن يرتاح إذا وجد الفرصة وامتنع عن استغلالها؛ ولذلك تعست حياته الزوجية تعاسة كبرى.

وعرفت آخرَ سرق أباه ونصب على أصدقائه وغشَّهم بضروب مختلفة من الغش؛ ولذلك لم أستغرب إن غشَّ أبناءه أيضًا، أجل، أجل إن الذي يخون المجتمع يخون أسرته بل عائلته.

والرجل الكريم الرقيق البشوش مع الناس يبقى على هذه الحال مع زوجته وأبنائه، فهو سعيد في مجتمعه، وسعادته تنتقل إلى بيته.
بل هناك ما هو أعمق مما ذكرناه.

فإن الرجل الذي يسيطر عليه الخوف في حياته العامة تجد فيه علامات معينة، كالسرعة والهولة كأنه يريد الفرار، أو قد تجد فيه العكس، في البطء الزائد والصوت المنخفض والتردد في الأعمال.

وهذه الأخلاق تلبسه حتى فيما يمارس من حب زوجي مما يسيء إلى العلاقة الزوجية. وهذا بخلاف الرجل المتزن الذي لا يسيطر عليه الخوف، فإن اتزانه في المجتمع ينعكس أثره في علاقته الزوجية الحميمة.

إن العائلة جزء من المجتمع، وهي تحتاج إلى أخلاق اجتماعية حسنة كما يحتاج إليها المتجر والمصلحة والمكتب، والرجل الأناني الخطاف في المجتمع يعود أنانيًا خطافًا في علاقته الزوجية التي تسوء إلى أبعد حدٍّ لهذا السبب.

وهناك شذوذات اجتماعية تتبلور في العلاقات الجنسية.

فالرجل الذي نشأ على العدوان في معاملاته الاجتماعية يعود ساديًا شاذًا في علاقاته الحميمة مع زوجته، التي قد لا تستطيع التحمل فتتفر منه إلى الطلاق، ويكون من هذا تدمير البيت، وكذلك الرجل الذي نشأ على نزق وطيش، ينتقل من عمل إلى آخر بلا ثبات ولا جلد تنعكس أخلاقه أيضًا على أخلاقه الجنسية، فهو لا يثبت على حب، بل يثب من امرأة إلى أخرى.

إن كثيرًا من مسائلنا الزوجية يعود إلى أننا نعيش في مجتمع انفرادي اقتنائي كل منا يقول فيه: «أنا وحدي»، أي إنه ليس مجتمعًا تعاونيًا، والزواج يفاجئنا بمسؤوليات تعاونية لم نتدرب عليها قبل ذلك، أي يطالبنا بالانتقال من الأثرة إلى الإيثار، وهنا المشقة؛ لأن الأخلاق لا تتغير بسهولة.

بل إن المدرسة التي نتعلم فيها تطالبُ كلاً منا بالتفوق على أقرانه، ومعنى التفوق عليهم ألا يتعاون معهم، وهو يسير قُدماً إلى نهاية منطق فيتعود العادات الاقتنائية الأنانية، بل قد يرتكب الرذائل والجرائم المستترة في سبيل ذلك، ولا يمكن أن يعيش مجتمعنا بغير

ذلك؛ إذ هو ليس مجتمعاً تعاونياً، والمغزى هنا أنَّ بعض رذائلنا التي تؤدي إلى تعاستنا الاجتماعية والعائلية يعود إلى أسس أصلية في مجتمعنا.

ولكن مع ذلك يجب ألا نهمل العلاج، أو بعض العلاج، مهما تكن النتائج صغيرة القيمة، فعلى الآباء مثلاً أن يدرّبوا أبناءهم على التعاون والإيثار، وأن يبدؤوا بذلك منذ أيام الطفولة، فيجب أن يلقي الطفل التشجيع والثناء عندما يقدم لشقيقه أو لأمه بعض الحلوى التي يأكلها، وأن يكلف أعمالاً للغير، بحيث ينشأ على إحساس الخدمة باعتبارها فضيلة يرتاح إلى ممارستها.

فإذا كبر الطفل فإننا يجب أن نُلحقه بالأندية التي يجد فيها الأصدقاء الذين لا يتبارى معهم في الدروس، وإنما يتعاون معهم في الألعاب، ومع أن لعبة الكرة مثلاً تجعل فريقاً ضد فريق يحاول التفوق عليه، فإن الشاب يجد أنه يتعاون مع فريقه، ولا يطلب النصر لنفسه، وإنما للفريق الذي ينتمي إليه، فينشأ عنده إحساس التعاون الذي ينمو فيه بملازمات اجتماعية أخرى.

ولكن الحياة الزوجية السليمة تحتاج أيضاً إلى الاختلاط بين الجنسين قبل الزواج حتى يعتاد الشاب كما تعتاد الفتاة معاملة الجنس الآخر، وصحيح أن معاملة الشاب لأفراد جنسه تؤثر في الحياة الزوجية المستقبلية، ولكن الأثر يكون أكبر إذا كان الشاب، وكذلك الفتاة، قد اختلطا بالجنس الآخر قبل الزواج في المدرسة والجامعة والمكتب والمصلحة والمتجر والنادي.

هذا الاختلاط هو تعارف، هو معرفة كل من أحد الجنسين للآخر، هو تهيئة للزواج؛ إذ ليس أتعس من شاب أو فتاة يلتقيان في أول يوم لزوجهما دون دراية سابقة بأخلاق الرجل من ناحية المرأة أو بأخلاق المرأة من ناحية الرجل، ولا يمكن أن يكون الجهل بهذا الموضوع أو بأي موضوع آخر حسناً.

هذا الانفصال الذي يجعل كلا من الجنسين يحيا حياة خاصة تختلف عن حياة الجنس الآخر، هو العلة الكبرى للمآسي التي تحدث بعد الزواج؛ لأنَّ كلا من الزوجين يجهل الآخر وأحياناً؛ لأنه ينتظر في خيالات رومانسية سينمائية حالاً من السعادة الصبانية ليس لها وجود في الواقع.

إن الواقع يجب ألا يغيب عن إحساسنا وذهننا قبل الزواج وبعده ولا يمكن هذا إلا بالاختلاط بين الجنسين قبل الزواج.

تزوجوا الصحة

عندما ينشد الشاب الزواج يعتمد في أول اعتباراته إلى طلب الجمال في الفتاة، ثم يأتي بعد ذلك إلى مركز عائلتها الاجتماعي وما تملك أو ما سوف تملك من مال أو عقار، ولكن عندما تنشُد الفتاة الزواج فإنها تفكر قبل كل شيء في المركز المالي والاجتماعي لزوج المستقبل، ولا تكاد تبالى بجماله، أو هي تضحي هنا بتقديرها للجمال من أجل القيم الأخرى، وهي الحصول على زوج قادر على أن ينفق عليها؛ إذ هي في الأغلب لم تتعلم كيف تكسب، فاعتبار الطاقة المالية للزوج كبير الشأن جدًّا عندها.

وظنِّي أن هذه الحال ستتغير في المستقبل حين تنشُد الفتاة الجمال في الشاب، ثم تنشُد بعد ذلك ثقافته ومركزه الاجتماعي وقدرته المالية، وسبب هذا التغيير أن فتياتنا يتعلمن ولا يعتمدن كل الاعتماد على الزوج الذي يكسب وحده ويعول العائلة وحده. وقيمة الجمال أصلية في الزواج، وأيما شاب أو فتاة يهمله، وكثيراً منهم يهملونه الآن، يندم على ذلك حين يجد نسلاً دميماً، بل يندم قبل ذلك كلُّما نظر إلى زملائه (أو نظرتُ إليها زميلاتهما) فيجدان الامتياز الذي لم يحصلوا على مثله.

ولكن حتى الجمال (وكذلك المال) يعدان صغيري القيمة إلى جنب الصحة، صحة الجسم وصحة العقل، ونعني الصحة الموروثة لا الصحة المكتسبة، أي الصحة التي تنتقل بالولادة وقد تكون غير وراثية، مثل الأمراض التناسلية، فإن عدوى الأبوين تنتقل إلى الأبناء، ولكن ليس هنا وراثية، إنما هما عدوى فقط.

وقبل أكثر من نصف قرن تألفت في إنجلترا جمعية تسعى لتحقيق «اليوجينية» أي العلم الذي نسترشد به في تحسين النسل، وكان الاهتمام في ذلك الوقت أكبر من اهتمامنا الحاضر؛ لأن الرأي السائد وقتئذٍ كان يقول بأن الوراثة هي كل شيء، فالعبقريّة في الرجل

العظيم وراثة، والإجرام في اللص والسفاح موروث، والتفوق مثل التخلف في أفراد المجتمع موروث، وكان «لومبروز» الإيطالي أعظم مَنْ عمّم هذه الفكرة المخطئة في أوروبا واستمسك بها «جالتون» ابن خالة «داروين» ودعا إليها.

ولكننا الآن لا نعزو إلى الوراثة كل هذه القدرة على تعيين حظوظ الناس؛ لأننا قد عرفنا أن الوسط كبير التأثير في تعيين الأخلاق ومقدار الذكاء، وأصبحنا نقول: إن العبقريّة مثل الإجرام مكتسبان من الوسط الاجتماعي.

ولكن مع ذلك هناك عاهات وراثية، بل أحياناً يكون الزوجان على أحسن ما يبدو للناس ذكاء وجمالاً وأخلاقاً، ثم يولد لهما صبي أو صبية بلهاء تامة البلاهة، بحيث تعجز عن النطق والتمييز، ولا يزيد ذكاؤها (أو ذكاؤه) على صبي في السنة الأولى أو الثانية من العمر حين تبلغ العشرين أو الثلاثين.

وقد حدث هذا لبيرك بك مؤلفة «الأرض الطيبة»، فإن السيدة لا ينقصها الذكاء، ولم يكن زوجها كذلك تبدو عليه أية علة، ولكن الطفلة جاءت بلهاء، عاشت مع أمها نحو عشر سنوات وهي حيوان لا يعقل، ثم سلمتها الأم بالدموع والحسرات لمستشفى الأمراض العقلية تبقى فيه إلى أن تموت. وجميعنا عُرضة لذلك.

ولكن من حُسن الحظ أن هذا لا يقع إلا بمقدار واحد في الألف، أو العشرة آلاف، ولا يمكن التكهّن به.

ولكن هناك حالات يمكن التكهّن بها، فقد يكون أحدنا سليماً ذكياً، ولكن له شقيقاً أبله أو قريباً من البله، فإذا تزوج أعقب صبيّاً أو صبية بلهاء.

ونعني البلاهة لا الغفلة، والأغلب أن البلاهة ترافقها تشوهات في الجسم، كأن تكون ملامح الوجه غير إنسانية، حين يكون الرأس صغيراً جداً يلفت النظر، أو الملامح مغولية، وحرّكة الجسم غير إنسانية مع عجز عن النطق.

فهنا يجب أولاً وقبل كل شيء تعقيم هذا الشخص الأبله حتى لا يتزوج، أو إذا تزوج فإنه لا يعقب، وثانياً يجب أن نحترس من أشقائه وشقيقاته؛ إذ هم قد يحملون الطاقة الوراثية لإعقاب مثله.

وليس شيء أتعس من أن يرى الأب ابناً له أبله، وقد لا يكون أبله إلى حدّ الحيوانية، مثل بنت بيرك بك المؤلفة الأمريكية التي ذكرناها، ولكنه عاجز عن فهم الدلالات، يسلك سلوك طفل في السادسة أو السابعة من عمره.

ولكن يجب هنا أن نحترس.

ذلك أن هناك أمراضاً نفسية خفيفة أو خطيرة قد ينتهي بعضها بما نسميه «الجنون»، ولكنها مع خفتها أو خطورتها ليست وراثية، وإنما هي تنشأ عن ضغط الحوادث ومن التوترات القائمة بين الفرد والمجتمع.

وكل منّا يعاني توترات تقوم بينه وبين المجتمع الذي تكثر فيه الكظوم والمحظورات، وكل منّا عرضة لأي مرض نفسي خفيف أو خطير، بل المجرم الذي يسفح الدم للغيط، أو يقتل أطفاله للانتقام من أهمهم أو نحو ذلك، هذا المجرم لا يمكن على الدوام أن نقول: إنه عمد إلى الإجرام لعاهة وراثية؛ لأن الوسط الاجتماعي بعباداته وتقاليده ومحظوراته وكظومه هو الذي أوجد في نفسه حالة إجرامية كان يمكن أن يتفادى منها لو أنه كان قد نشأ في مجتمع آخر ...

وعندي أن العبقرية، مثل الإجرام، نتيجة الوسط الاجتماعي، بل الأخلاق كذلك، والشجاعة والجبين والشهامة والندالة، كل هذه الفضائل نتيجة للوسط الاجتماعي فقط. وقد عرفت بعض الشعوب قيمة الوراثة فسنت قوانين لتعقيم الناقصين في الذكاء، أي البُلّه، وأسرفت حكومة هتلر فكانت تعقم بعض المجرمين النواسين الذين يفسقون بالصبيان أو الذين يثبت عليهم تكرار الجريمة.

وهذا إسراف؛ لأن كل هذه الجرائم ليست على الدوام وراثية.

ولكن إسراف هتلر ليس برهاناً على أن العاهات الوراثية يمكن إهمالها؛ إذ هي حقيقة بارزة تشيع الظلام والحزن والחסرات في الزواج.

ولذلك إذا شئت أيها الشاب (أيتها الفتاة) أن تتزوج فليكن أول ما تسأل عنه هو سلامة العائلة من أمراض الجسم الوراثية، وهي قليلة، ثم تسأل عن العاهات العقلية الوراثة.

وأكرر القول: إن انحراف أحد الأفراد في العائلة نحو مرض نفسي، مثل النورستانيا أو الشيزوفرينيا أو المانيا أو الخوف أو الخجل أو الشذوذ الجنسي، كل هذه الأمراض ليست وراثية، والبرهان على ذلك أنه يمكن علاجها قبل أن ترسخ، بل كثيراً ما يصاب بها الأذكاء، ولكن نقص الذكاء الذي يصل أحياناً إلى البلاهة هو العاهة التي يجب أن نتوقاها في الزواج، ليس في شخص الزوج القادم فقط بل في أشقائه أيضاً.

إن للزواج كما لكل شيء آخر قيمة إنسانية، وأكبر قيمة إنسانية في الزواج أن يكون الشريك المختار من أسرة ذكية، ثم جميلاً، من أسرة جميلة، ثم سليم الجسم من الأمراض

الوراثية، أما بعد ذلك فالقيمة للتربية والثقافة والقدرة على كسب العيش (في الزوجين وليس في واحد فقط منهما).

وأحب أن أميز هنا بين كلمتين، فإني أعني بالعائلة الزوجين وأبناءهما فقط، وأعني بالأسرة آباء الزوجين والأعمام والأخوال، أي الرهط كما تقول معاجمنا. ويجب ألا نهمل العاهات الوراثية في الأسرة، كما يجب ألا نهملهما في الأبوين.

زواج العقل

حين نواجه أية مشكلة في حياتنا نجدنا في اختيارين في معالجتها، هل نعالجها بالعاطفة أم بالعقل؟

فإذا عالجناها بالعاطفة فنحن أطفال وسرعان ما نندم على سلوكنا؛ لأن العاطفة تزول وتبقى المشكلة كما هي لم تُحل، بل نندم أكثر إذا كنّا قد تطورنا في معالجة عاطفية يدوم أثرها السنين الطويلة، بل قد يدوم طيلة حياتنا كما هو الشأن في الزواج أو اختيار العمل الذي نرتزق به.

أما إذا عالجنا مشكلاتنا بالعقل فإن حلّ المشكلة يتجاوز الانفعال الحاضر إلى رسم الصورة أو الخطة في المستقبل، عندئذ يكون الحل سليماً يتفق مع إرادتنا العاقلة في محيط مجتمعتنا وظروفه.

تأمل شجاراً ينشأ من النقاش الحاد مثلاً بينك وبين شخص آخر، فإن أول ما تلجأ إليه هو التعبير عن غضبك بكلمات مهينة أو استفزازية، وهذه هي العاطفة التي قد تجلب عليك أضراراً.

ولكن سلوك العقل يوحى إليك بالابتسام والتسليم له في بعض ما قاله، ثم التعقيب بلطف ورقة، ثم الإقناع، وتخرجان كلاهما صديقين بلا حماقة أو سباب أو تعنيف. هذا مثلاً ساذج لظرف طارئ، ولكن حياتنا مملوءة بالمشكلات التي نواجهها بالعاطفة فنسلك سلوك الأطفال القاصرين، أو بالعقل فنسلك سلوك الناضجين المجربين.

اعتبر الزواج مثلاً، فهناك من يتزوج باندفاع العاطفة لا يتلبث ولا يتأمل في رؤية العقل، وسرعان ما تأتي ساعة الندم على هذا السلوك بعد شهر أو أسبوع من الزواج، فقد تزوجها لفورة عاطفة جنسية، فلم يسأل عن أخلاقها أو ثقافتها أو سلامة عقلها أو الوسط الاجتماعي في أسرتها أو قدرتها الاقتصادية سواء فيما تمتلك أو فيما تدبر مما يعطى لها،

بل لم يعرف اتجاهاتها وأذواقها، عندئذٍ يجد كل يوم ما يدهشه من سلوكها، بل ما يصدمه ويؤسفه.

كذلك الشأن في الفتاة التي تختار أول طارق يسأل عنها، وما هو أن يتم الزواج حتى تجد في عاداته الظاهرة والخفية ما تشمئز منه وتلعن اليوم الذي تم فيه الزواج. واختيار الزوج (أو الزوجة) لهذا السبب يجب أن يكون خاضعاً للعقل وليس للعاطفة، وهناك من يفهم من عبارة «زواج العقل» إيثار المال في أحد الزوجين على سائر الميزات، وهذه حماقة، بل جنون.

إنما نعني بزواج العقل أن نختار الفتى أو الفتاة اللذين نجد فيهما الكفاءة للأبوة قبل كل شيء، ثم الكفاءة للمعاشرة المتمدنة، وبعد ذلك الجمال أو المال، وكان يجب ألا يكون للمال أي اعتبار في الزواج، ولكن مجتمعنا الاقتنائي يقدر الناس بما يملكون، خاصة أن الزوجة في كثير من الأحيان، بل في معظم الأحيان لا تكسب، بل ولا تملك شيئاً.

والكفاءة للأبوة (والأمومة أيضاً) تعني قبل كل شيء القدرة على إيجاد نسل صالح ممتاز بالذكاء والصحة، والكفاءة للعشرة المتمدنة تعني أسرة حسنة وتربية سابقة وتجارب اجتماعية، مثل العمل في متجر أو مكتب أو مصنع، أما الجمال فميزة لا شك فيها، ولكن من منّا يساوي الجمال بالذكاء؟

إن الإنسان حيوان الذكاء، والذكاء وحده هو الذي يحل أية مشكلة يحدثها الجمال. وإن يجب أن نقول: إن فرصة الاختيار للزوج أو الزوجة هي فرصة التعقل الرزين المتمهل، وليس فرصة الاندفاع المهرول.

بل يجب أن تكون هذه حالتنا في جميع شئوننا ومشكلاتنا طيلة حياتنا، فالوقاحة والعناد والسباب والاندفاع كلها من إحياء العاطفة، وكلها مما يتسم به الأطفال، أما الرجل الناضج أو المرأة الناضجة فكلهما يأخذ بسبيل التعقل لمواجهة الظروف. ويجب علينا حين نواجه مشكلة أن نسأل: هل أنا الآن أحلها بطريق العقل المتزن أم بطريق العاطفة المنفعلة؟

يجب أن نقف هذه الوقفة في كل مشكلة مهما تكن تافهة أو خطيرة. وليست هذه الوقفة مما يسهل علينا؛ لأن العاطفة تطغى وتدفعنا إلى العمل أو الإجراء الطائش، في حين أن العقل الهادئ لا يتحرك إلا بعد السؤال.

وكثير من الخيبة في الشباب يُعزى إلى أنهم اختاروا العمل الذي يرتزقون به بالعاطفة الوقتية وليس بالعقل المتبصر، فلما تورطوا فيه ندموا؛ ولذلك يحسن بالآباء حين يجدون

أبناءهم مقبلين في حماسة على اختيار دراسة معينة بُغية الارتزاق في المستقبل أن يناقشوههم بالكلمات المهذبة المغربية حتى يبصروهم بالمستقبل.
وأحياناً نجد في الشبان اندفاعاً عاطفياً نحو مغامرة مالية نفهم لأول تأمل أنهم غير أكفاء لها، ولكن العاطفة تطغى عليهم فلا يجدون من خلالها منفذاً إلى العقل، ويتورطون في مغامرات قد تنتهي بالخيبة والمرارة.
في كل عمل، في كل سلوك، نجد أماننا اختيارين يجب أن نكررهما:

- هل أنا الآن أسلك بعاطفتي الغامرة أو أسلك بعقلي المتبصر؟
- هل أنا الآن أسلك سلوك الأطفال المندفعين أم سلوك الرجال الناضجين؟

وكثيراً ما أتأمل الحياة الزوجية التَّعَسَّة بين زوجين، فلا أتمالك الإحساس والاعتناع بأن أحدهما طفل عاطفي، وكثيراً ما يكون هذا في الزوجة التي تزوجت وهي تجهل حقائق الحياة، وتصدق المناظر السينمائية فتتوهم أنه يجب على زوجها كلُّما التقى بها عقب عودته من عمله وهو متعب أن يبسط ذراعيه ويعانقها في اشتها حار كما لو كان روميو، وهي تبكي لأقل استفزاز، وتغضب لأقل معارضة، وهي تنفق على زينتها كما لو كانت طفلاً يلعب بالشخاشيخ، هي تحب الحلوى واللبن وتطلبهما كل يوم، وتأكل وتتخم حتى تسمن فتترهل، فإذا تقدمت بها السن قليلاً تناوبتها مخاوف عن صدور زوجها، وأنه ربما يطلقها، فهي تلح عليه أن يبيعها (أي يهبها) منزلاً أو أرضاً، وتتعسه كل يوم بهذه المحاولات حتى يكره حياته معها، بل يفكر بالفعل في الانفصال عنها.
وكل هذا؛ لأنها وقفت في نموها عند حد العاطفة التي استرشدت بها دون العقل، وقفت عند حد الطفولة.

- أيها الشاب: اختر زوجتك بعقلك وعاملها بعقلك.
- وكذلك أيتها الفتاة تعقلي ولا تنفعلي.
- العاطفة اندفاع أعمى، والعقل رؤية بصيرة.

زواج بلا دموع

قبل نحو سبع سنوات ألفتُ كتابًا بعنوان: «محاولات»، تناولت فيه موضوع الزواج، وقلت فيه بالحرف:

وحسبنا أن نقول بوجه عام: إنه يمكن التبكير في الزواج، أي حوالي سن العشرين، إذا كان الزوجان يتفقان على الامتناع عن التناسل، وإذا كانت الزوجة ترضى بأن تعمل وتكسب كما يعمل ويكسب زوجها، وهما إذا فعلا ذلك فإن نفقات العيش لا تزيد على الزوج؛ إذ هو يعيش عندئذٍ مع زوجته ولا ينفق أكثر مما كان ينفق وهو أعزب، وقد أخذ الأمريكيون بالزواج المبكر على أساس من هذا النظام الجديد، وهو أن الزوجة تعمل وتكسب، ثم يؤجل التناسل سنوات إلى أن يجد الزوجان أنهما قادران على نفقات الأطفال، وقد تكف الزوجة عندئذٍ عن العمل والكسب أو لا تكف.

والطلبة في الجامعات الأمريكية يتزوجون الطالبات.

هذا ما كتبته قبل نحو سبع سنوات.

وقد عرفت أن بعض الطلبة يتزوجون الطالبات في جامعة القاهرة مع الاتفاق على تأجيل إنجاب الأطفال إلى ما بعد تخرجهما وقدرتهما على الإنفاق عليهم.

وهذا الزواج لن يزيد أعباء الزوج أو الزوجة، فإن الزوج كان طالبًا قبل زواجه وهو لا يزال طالبًا بعده، وكان أبوه يؤدي له مبلغًا شهريًا ينفق منه، فلن يزيد هذا المبلغ، وهكذا الشأن في الفتاة التي أصبحت زوجة فإنها لن تطلب من والدها مليماً واحداً زيادة على مصروفها أيام العزوبة السابقة.

بل هناك حالات يعود فيها الزواج بين الطالبات أقل نفقة من العزوبة، وذلك حين يكون الآباء في الريف والأبناء في القاهرة أو الإسكندرية مثلاً، فإنهما يقيمان في مسكن واحد أحدهما عند والدي الزوج أو والدي الزوجة. والنقطة الأساسية هي الامتناع عن إنجاب الأطفال حتى يتم تخريجهما من الجامعة.

إن الذي يعوق الزواج الآن هو أنَّ الزوجة لا تعمل، بل تقنع بالإقامة في البيت تنتقل من السرير إلى الكرسي إلى الكنب، فهي تحتاج إلى مَنْ ينفق عليها، ولا يمكن الشاب الطالب أن ينفق عليها ونحن نجعل نفقات الزواج مرهقة بالدبلة والشبكة والمهر وجهاز العروس ووليمة العرس وحفلة الخطبة، وكل هذه نفقات يمكن الاستغناء عنها كلية، كما أن إنجاب الأطفال يمكن تأجيله سنتين أو ثلاث سنوات أو أكثر حتى يعمل الزوج والزوجة ويكسبان. ولا بدَّ من أن تعمل المرأة وتكسب؛ إذ إن من الظلم الجائر أن يتحمل الزوج نفقة اثنين: هو وزوجته، وصحيح أن هناك من الشبان من يسعدهم الحظ بعمل كاسب وفير الكسب، مثل الأطباء والمحامين والتجار وكبار الموظفين، وهؤلاء يستطيعون أن ينفقوا على أنفسهم وعلى زوجاتهم، ولكن متوسط الكسب بين معظم الشباب لا يكفي لأن يقوم دخل الواحد بتكاليف اثنين، فلا بدَّ من أن نعد بناتنا للكسب بعد الزواج، كما لا بدَّ أن نلغي هذه التكاليف الابتدائية المرهقة التي انحدرت إلينا بالتقاليد والعادات، مثل وليمة العروس والمهر والجهاز، إلخ.

الزواج هو رجل وامرأة يتفقان على المعاشرة بُغية التناسل قبل كل شيء، وهذه المعاشرة ممكنة في غرفة واحدة بين الطالب والطالبة دون أن يكلفهما عقد الزواج أكثر من بضعة قروش.

ليس الزواج شَبْكة من الذهب أو الألباس تكلف مئات الجنيهات، وليس الزواج ليلة حمراء تحوي لحوم الخراف والدنادي وشراب الكونياك والويسكي. وليس الزواج جهازاً نشتره بألف جنيه.

الزواج أبسط من هذا، هو اجتماع اثنين ومعاشرة الواحد للآخر، وحُبُّ الواحد للآخر وخدمته له، غرفة واحدة متواضعة يمكن أن تحتوي مثل هذا الزواج.

ومثل هذا الزواج يتم الآن في جامعات أمريكا وأوروبا كما تم مثال منه في جامعتي القاهرة، ولكن ميزة الزواج عند الطلبة الأمريكيين أنهم يعملون ويكسبون، شبَّاناً وفتيات، وهم طلبة وطالبات، والأغلب أن هذا غير ممكن في بلادنا في الوقت الحاضر، ولكن حتى مع

عجز الطلبة والطالبات عن الكسب فإن الزواج يمكن أن يتم بلا زيادة يتحملها أب الزوج أو أب الزوجة على ما كانا يدفعانه قبل الزواج لابنيهما.

إن العائلات تكره مثل هذا الزواج خشية أن تتهم بالفقر أو البخل، مع أن تسعة أعشار هذه العائلات من الفقراء، ومع أن البخل فضيلة هنا، إذا عرفنا أن الكرم هو بعثرة النقود الغالية في طعام وشراب وشخاشخ من الذهب والألماس وجهاز من الكراسي والنحف والأسرة.

وكثير من العائلات يقع في الديون المرهقة للقيام بهذه «الواجبات» التي تملئها تقاليد وعادات اجتماعية بالية، وقد يعيشون سنين وهم يسددون هذه الديون.

ونحن في مصر منكوبون بطائفة من الناس نشئوا على الخوف من الدنيا والشك في المستقبل، فهم لذلك يتعلقون بالتقاليد كما لو كانت شاطئ الأمان للغريق يخشى أن ينزلق منه إلى بحر تتلاطم أمواجه، ومن هذا الخوف هو الجهل بأساليب الحياة الجديدة، وأنها أروج للنفس وأبعث على التفاؤل والأمل من التقاليد وأدعى إلى سعادة الزوجين.

ولست أقول إن فيما كتبتَه هنا حلاً نهائياً لمشكلة الزواج؛ لأننا بتقاليدنا العديدة قد أرهقتنا هذه المشكلة بالعقد المختلفة، وليس إصرارنا على الشُّبْكة والمهر من جانب الزوج والجهاز من جانب العروسين سوى بدل من الحب، هذا الحب الذي يجب أن نعرف أنه ليس هناك أساس أجمل منه وأثبت للزواج السعيد.

الشاب لا يحب الفتاة التي يخطبها ولم يجد الفرصة لهذا الحب بالاختلاط السابق، فهو يطلب الجهاز، مالاً بدلاً من العاطفة.

والفتاة لا تحب الشاب ولم تجد الفرصة لهذا الحب بالاختلاط السابق، فهي تطلب المهر والشبكة مالاً بدلاً من العاطفة.

ولكن لو كانت كلمة الحب مقدسة، ولو كان الشاب والفتاة يختلطان نحو خمسة شهور قبل الزواج، لما كان لهذه الأشياء؛ الشبكة، المهر، الجهاز، أي معنى؛ لأن حبهما كان يلغي هذه الأشياء جميعاً، ثم يتصرفان معاً بالاتفاق بينهما التصرف الحكيم لتأسيس بيت المستقبل.

جمال المرأة بعد الزواج

قبل شهور نهض الرأي العام المثقف يحتج على جامعة عين شمس لاعتزامها إنشاء كلية للبنات فقط، كلية تدخلها البنات ولا يدخلها الشبان كما لو كانت ديرًا خاصًا بالنساء. وكان هذا الاحتجاج برهانًا على حيوية المثقفين، كما كان إصرار هذه الجامعة على إنشاء هذه الكلية برهانًا على تعسف وعناد وجهل.

إن القائمين بالتعليم المختلط يعترفون بالفواصل الجنسية بين الشبان والفتيان، ولكنهم لا يعمون عن الروابط الإنسانية والاجتماعية بين الجنسين، وإن هذه الروابط ترجح كفتها تلك الفواصل، والتعليم المختلط يبرز القيم الإنسانية ويهذب العلاقات الاجتماعية. إن المرأة إنسان قبل أن تكون أنثى.

والرجل إنسان قبل أن يكون ذكرًا.

وكلاهما، الرجل والمرأة، يرتبطان بالإنسانية قبل أن ينفصلا بالجنس، ثم أيضًا حياتنا الاجتماعية المتمدنة الحاضرة تحتاج إلى أن نتعارف ونتعامل في أسلوب اجتماعي مهذب قبل الزواج؛ حتى نستعد به للزواج، ومن الضرر الفادح أن نحيا حياة انفرادية انعزالية إلى سن الثلاثين مثلاً، ثم نطالب بالمعاشرة الزوجية، وكلاً على جهل بأخلاق الآخر، والاختلاط وحده قبل الزواج هو الذي يهيئنا للتفاهم النير والمعاملة المهذبة في الزواج.

والذين يقولون بالانفصال في التعليم بين الجنسين يخشون الخطر من الإغراء الجنسي، ولكن قليلاً من التأمل والمعرفة يثبت أن الحرمان والانعزال يبعثان على التفكير الجنسي الملح أكثر مما يبعثه الاختلاط.

الاختلاط يعتمد على الواقع، والواقع يهذب ويربي وينزل على الحقائق، ولكن الانعزال يبعث على الخيال ويغري على الانغماس الجنسي الانفرادي، وهو تعاسة ونجاسة وظلام.

وقد تخرج من كليات الجامعات، حيث التعليم مختلط، أكثر من عشرين ألف فتاة مصرية يعملن في التعليم والطب والتمريض والزراعة والهندسة، وكلهن على أخلاق عالية، أخلاق نقتدي بها ولا ننفر منها.

وقد يقال: إنه قد حدثت حوادث مؤسفة.

ولكن مثل هذه الحوادث تحدث في غير البيئة الجامعية، بل تحدث أكثر حيث يكون الانفصال في المجتمع.

وتم اعتبار آخر يجب ألا ننساه، هو أن الصحة النفسية في كل من الشاب والفتاة تعود مرضاً وشذوذاً في الانفصال؛ وذلك لأن لكل من الجنسين صورة نفسية للجنس الآخر، فالشاب السليم الذي عاش في مجتمع مختلط ومدرسة مختلطة وجامعة مختلطة تبقى صورة الفتاة في نفسه، فلا يزيغ ولا ينحرف، وكذلك الشأن في الفتاة التي لا تنصب نفسها على الجنس الآخر وحده، أما حيث يكون الانفصال فإن الشذوذ يأخذ مكان الصحة، فتتجه الفتاة إلى الفتاة والشاب إلى الشاب، وهنا العاهة الاجتماعية البشعة التي لزمت المجتمعات الشرقية آلاف السنين الماضية حين شاع الانفصال بين الجنسين، وليست أشعار أبي نواس التي يمجّد فيها هذا الشذوذ إلا انعكاساً للحال الاجتماعية التي كانت سائدة في عصره بسبب الانفصال بين الجنسين.

إن صحة النفس تطالبنا بالاختلاط في المدرسة وفي الكلية وفي المجتمع، والانفصال بين الجنسين هو إفساد للطبيعة البشرية وتفشي الشذوذ على الدوام ثمرة الانفصال حتى بين الحيوانات، الشذوذ هو تشويه دنس نجس للغريزة الجنسية.

ثم هذا الاختلاط بين الجنسين هو متعة ليس من حق أي إنسان أن يحرمنا إياها؛ إذ لمصلحة من نحرّم هذه المتعة؟ من نخدم بهذا الحرمان؟ هل نحرّم للحرمان من أجل الحرمان؟

ثم هناك ميزة للتعليم المختلط هو أنه اقتصادي، والاقتصاد في شعب فقير مثل شعبنا لا يمكن إهماله، فهنا مثلاً البلدة المنعزلة التي ليس فيها غير مائة صبي أو شاب، فإن إنشاء مدرسة ابتدائية أو ثانوية لهم وحدهم تجعل النفقة باهظة، لكن إذا أضفنا إليهم مائة فتاة يتعلمن معهم في فصول مختلطة فإن المدرسة عندئذٍ تتخفّض نفقاتها؛ لأن المعلم الذي يعلم ١٥ تلميذاً يمكنه أيضاً، بلا زيادة في المجهود أن يعلم ٣٠ تلميذاً وتلميذة، وهنا الاقتصاد.

بل إن هذا الاقتصاد يزداد وضوحاً في كليات الجامعة، ففي أحيان كثيرة لا نجد غير عشرة من الطلبة الشبان مادة البيولوجية أو المصروlogية أو اللغة الألمانية أو غيرها

من المواد، ومن الإسراف المهلك أن نخصص الأساتذة الذين لا يقل مرتب أحدهم السنوي عن ألف أو ١٥٠٠ جنيه لتعليم هذا العدد القليل، ولكن هذا الإسراف يعود اقتصاداً حين يتضاعف عدد الطلبة بإضافة الطالبات إليهم في فصل واحد.

ولا أستطيع أن أسلم بأن الرغبة في التعليم المنفصل غير مرتبطة بالنزعة الرجعية التي تقول بأن البيت هو المكان الأول للمرأة، فإن هناك طوائف في الشعب لا يزال الجهل يغمرها، ولا يزال أفرادها يستمسكون بالعادات الشرقية في احتقار المرأة، وأن التعليم ليس ضرورياً لها، ودعوة التعليم المنفصل هي محاولة ابتدائية لرد المرأة إلى مكانة محترمة بعد أن اكتسبت معركة المساواة إلى مدى بعيد.

وأخيراً أقول: إن لجمال الفتاة قيمته الكبرى في كرامتها وفي نجاحها في اختيار الزوج، وفي سعادتها في زواجها، وأسمى أنواع الجمال هو جمال الشخصية.

لا، ليس الجمال أن تكوني أيتها الفتاة ذات قوم أهيف ووجه كله حلاوة في الملامح، فقد تحصلين على ذلك وعلى أكثر منه ويبقى بعد ذلك أن تكون لك شخصية لبقة رشيقة ناطقة.

لقد كان الجيل الماضي يحسب الأدب الجم في الفتاة الصامته التي تقعد مكتوفة ساكنة تغض النظر وتزعم الحياء، ينظر إليها خطيبها وهي لا تنظر إليه إلا خلسة وفي مكر مظلم. وكانت تسمى مؤدبة، ولم تكن متعلمة، ولم تكن تحسن الحديث، بل لم يكن لها من عمل تليق له سوى التناسل.

شخصية خشبية صامته لا تترنُّ إذا نقرت.

ولكن شبابنا المثقف الذي عرف وجرب يطلب فتاة لها شخصية رشيقة، ولا يمكن فتاة تمضي عمرها في البيت أو تتعلم منعزلة عن الشبان أو لا تختلط بالمجتمع أو لا تؤدي صناعة أو لا تحترف حرفة أو تهمل قراءة الصحف والكتب، أو تجمد عن الارتقاء الشخصي، لا يمكن مثل هذه الفتاة أن تستمتع بشخصية رشيقة جميلة.

وأكرر القول: إن الشخصية الرشيقة هي أسمى طرز الجمال؛ إذ هي جمال النفس المبتهجة، النشيطة المتطلعة المرتقية الجريئة، وهو جمال يعلو على العيون الحور والوجنات الوردية والصدر الناهد، وسائر أوصاف الجسم اللحمية.

لقد أجرى، قبل سنوات، أستاذ سيكولوجي، امتحانات بين الطلبة عن صفات الجمال التي يؤثرونها على غيرها من الفتيات، فكانت الأكثرية في وصف الصفات التي تزدان بها الشخصية، وعلى هذا الأساس قلت: إن الرقص والتعليم المختلط والألعاب المختلطة كلها تكوّن الشخصية، وكلها تزيد الفتيات، بل الشبان أيضاً جمالاً وإغراءً للجنس الآخر.

الفتاة التي تكسب

كلنا يعرف، بل يوقن أن الأعباء الاقتصادية في حياتنا الحاضرة تكاد تكون مبهضة مرهقة، وأن الموظف أو المالك الذي كان يحصل قبل عشرين أو ثلاثين سنة على دخل شهري لا يتجاوز عشرة جنيهاً لم يكن ليجد تلك الصعوبات التي يجدها الموظف أو المالك في أيامنا، ولو كان دخله يبلغ أربعين جنيهاً في الشهر.

ذلك أن الأشياء تسير، في العالم كله وليس في بلادنا وحدها، نحو الغلاء، وبكلمة أخرى تسير النقود نحو التضخم، وهو تضخم طبيعي له أسبابه التي ليس هنا مكان شرحها، فقد رأيت بعيني قبل نحو نصف قرن أفة السمك تباع بنصف قرش ورطل اللحم بقرش واحد و ١٥ بيضة بنصف قرش، وكان مصري في وأنا دون العاشرة نصف قرش في اليوم، مع ذلك كنت أعوم به في الرفاهية (وذلك بالطبع قبل اختراع الشيكولاتة التي لم أسمع عنها طيلة القرن التاسع عشر).

كل شيء يسير نحو الغلاء، ولكن هذا وحده لم يكن ليُكربنا ويرهقنا، مباراة في الاقتناء تزداد سنة على أخرى، وأثاث البيت الذي كان يكلفنا قبل نصف قرن نحو خمسين جنيهاً قد أصبح يكلفنا أكثر من ٥٠٠ أو أحياناً ألف جنيه، وليس هذا بسبب الغلاء فقط، وإنما لأن مقداره قد زاد، كما أننا أصبحنا لا نقنع بالرخيص التافه منه.

وبكلمة أخرى زادت صعوبات العيش.

وبكلمة أخرى أيضاً زادت صعوبات الزواج.

ذلك؛ لأن المرتب الصغير الذي كان يحصل عليه الشاب وكان يكفيه وهو أعزب كان يمكن أن يكفيه أيضاً وهو متزوج، ولكن الآن لا.

ولهذا السبب يجب أن يهدف الشاب إلى الزواج من فتاة كاسبة، بحيث يجتمع كسباهما فيكون منهما الوفر الذي يحتاج إليه بيت متمدن ينفق عن رفاهية، وليس عن ترف، على العيش الهنيء والنفقة المعقولة وليس السخية على الأطفال.

هذه نصيحة حتمية للشباب: لا تتزوجوا الفتاة العاطلة التي تضي حياتها الزوجية وهي «قعيدة» البيت؛ ذلك لأنكم أولاً لا تستطيعون في ظروفنا الجديدة الحاضرة الإنفاق بمرتبتكم الصغير على زوجة وعائلة.

ثم هناك مع ذلك اعتبارات أخرى تقتضي الشاب اختيار الزوجة الكاسبة؛ المعلمة، الطبيبة، العاملة في المصنع أو المتجر، الطرزية، الموظفة في الحكومة، المحامية ... إلخ، ذلك أن البيت العصري لم يعد يحتاج مثل بيوتنا القديمة إلى ١٦ ساعة من عمل الزوجة والخدم؛ في الطبخ والمسح والغسل وشراء حاجات البيت، بل إن البيت القديم كان يحتاج إلى أن يخبز الخبز أيضاً في فرن البيت، وبيوتنا الحاضرة إذا كانت في المدينة النظيفة والشارع النظيف لا تحتاج إلا إلى أقل الجهود لتنظيفها، كما أن ساعة من ربة البيت تمضيها في تهيئة الطعام ونحوه، تقوم مقام الجهود القديم طيلة اليوم، وهو مجهود عرفته أمهاتنا مع الحشرات والدموع، أما الزوجة الحديثة فلا تعرفه.

وأكثر من هذا في المقارنة بين الزوجة الكاسبة والزوجة القعيدة أن الأولى متمدنة تحذق فنّاً تكسب به، وتمدنها وفنها وعملها الخارجي كل هذا يقتضيها الاختلاط بالمجتمع ودرس شئون الحياة فيه؛ ولذلك تزداد فهمًا للعالم وعرفاناً بطرق الخير والشر وبصيرة بالمستقبل واستعداداً لتربية أطفالها وتوجيههم الوجهة الصحيحة لنجاحهم في المجتمع؛ إنها تعيش في المجتمع وتفهم القواعد التي ينبنى عليها النجاح والخيبة في المجتمع؛ ولذلك لا تخطئ حين تبصر بمستقبل أبنائها؛ لأن بصيرتها صادقة.

ثم هي إنسانة تفهم معاني الإنسانية والشرف والتضحية والخير؛ لأنها تشترك في شئون اجتماعية تبعث فيها هذه الإحساسات النبيلة، أما قعيدة البيت فلا تفهم شيئاً من ذلك إلا إذا كان ذكاؤها نادرًا، يحطم جدران البيت ويتصل، عن طريق الزيارات وقراءة الصحف والكتب، بالمجتمع، ومع ذلك مهما كان ذكاء القعيدة عاليًا نادرًا فإنه لن يبلغ ذكاء الزوجة العاملة الكاسبة؛ إذ إن ذكاء هذه العاملة الكاسبة مدرب بالاختلاط بالرجال، والاشتغال بالشئون الاجتماعية، والاختلاط في المتجر أو المكتب أو المصنع، أما ذكاء تلك الزوجة القعيدة فليس مدربًا، ثم أكثر من هذا أيها الشاب، خذ مني هذه النصيحة: عندما تتزوج تذكر أن زوجتك قد تكون أرملتك بعد خمس أو عشر سنوات، ومع أن هذا الاحتمال

قد يكون غير مرجح فإنه على الأقل ممكن، ومهما أمّنت على حياتك في إحدى الشركات عناية بأرملتك وأطفالك فإن التأمين الحقيقي هو أن تكون زوجتك بعد وفاتك بعمر طويل أو قصير قادرة على أن تنهض وهي شريفة حادة مستنيرة لخدمة أولادك وخدمة نفسها. لقد سبق أن نصحت، وكتبت كلمة بعنوان: «اختر أرملتك» فردت عليّ السيدة سهير القلماوي بأن هذه النظرة تشاؤمية، وإني ما كان يجب أن أقولها، ولست أشك أنها نظرة تشاؤمية، ولكن هل هي تخالف واقع الحياة؟

ألسنا نعرف كثيرات من الزوجات قد أصبحن أرامل؟ فلماذا ننكر هذه الحقيقة؟ ولماذا نستبعد لها أن نطالب الشاب بالأختيار تلك الفتاة زوجة له إلا إذا قدّر أنها قد تصبح يوماً ما أرملة، وأنها يجب أن تكون أرملة ذكية، قادرة على الكسب وعلى خدمة الأطفال، دون أن تحتاج إلى مدّ يدها تستجدي الصدقة من الأقارب والأبعد، وهيهات أن تقوم الصدقة مقام المهنة التي تحسنها، والتي تكسب منها قوتها وكرامتها وقوت أطفالها وكرامتهم.

قد يثبت هنا سؤال من أحد الشبان الذين يقرءون هذه الكلمة فيقول: إذا كنت تزعم بأن دخل الزوج لا يكفي نفقات البيت العصري فلماذا لا تدعو إلى الزواج من الفتيات الوارثات بدلاً من الفتيات العاملات؟

وجوابي المجابه الصريح هو: هل تريد أن تكون زوج زوجتك أم ناظر عزبتها؟ وهل تكفل أن موقفك إزاءها وأنت بلا عزة تستغل موروثها، سيكون موقف الشرف والمساواة والكرامة والحب والخير؟

أظن لا، وجميع من عرفت ممن هدفوا هذا الهدف ندموا عندما تحقق لهم الهدف. ولست هنا أنكر أن بعض المال تملكه الزوجة بالميراث من أبويها له قيمة، ولكن هذا الميراث صغير في معظم الحالات لا يغني غناء المهنة الكاسبة، وزيادة على هذا تمتاز الزوجة المحترفة الكاسبة على الزوجة الوارثة القاعدة بأن الأولى اجتماعية يتدرب نكاؤها كل يوم بالمهنة، ويطردها ارتقاؤها بمقتضيات هذه المهنة، أما قعيدة البيت الوارثة القانعة، فتجمد ولا ترتقي، ولا تنتظر منها الكفاءة لتربية أطفالها، بل هي خطر على نفسها وأبنائها إذا قضى الحظ السيئ بأن تكون أرملة.

أكرر ذلك أيها الشاب: تزوج الفتاة الكاسبة التي تحسن حرفة ما. وأخيراً لي كلمة أوجهها إلى الفتاة: لا تتزوجي شاباً وارثاً يمضي حياته عاطلاً لا ينتج، ويحيا تافهاً يسمح ببنطلونه كراسي المقاهي ويسهر ويشرب الخمر ويأكل حتى يسمن،

وتذكري أن كل ثروته الموروثة قد تضيع في نبوة من العقل أو في مغامرة في التجارة، وإنما تزوج الرجل الذي يكسب من حرفته؛ لأن هذه الحرفة تعلمه وترقيه وتنظم حياته، وتكسبه كرامة، وتعلق به مسئوليات مهنية ينعكس أثرها على جميع علاقاته الاجتماعية والعائلية، ثم هذه الحرفة لن تفقد بمغامرة كالثروة الموروثة.

زوجات بلا خدم

أعرف رجلاً يحترف المحاماة التي بلغ فيها مركزاً يغبط عليه، وهو من حيث الكسب يستطيع أن يستخدم خادماً أو خادمين، ولكنه لا يفعل.

ذلك لأن زوجته المتعلمة المستنيرة تخدم البيت، فتشتري بنفسها الطعام من لحوم وبقول، وتطهو وتنظف، وتبعث بالملابس التي تحتاج إلى الغسل إلى الكوّاء، الذي يقوم بالغسل والكي، وهي لا ترهق بأعمالها؛ لأنها رتبته بحيث صارت تؤديها في اقتصاد الجهد والوقت.

وكثيرات من السيدات المتمدّنات يفعلن ذلك الآن في القاهرة وسائر المدن، وقد يكون لأزمة الخدم الحاضرة بعض الأثر في هذا الاتجاه، ولكن الذي ألاحظه أنه عندما تعمد ربة البيت إلى الاستغناء عن الخدم وتخدم هي بنفسها وأولادها، وأحياناً زوجها، فإنها لا تعود بعد ذلك إلى استخدام الخدم؛ لأنها حين تتعلم الخروج كل صباح لشراء حاجاتها تغتبط بإحساس النزهة، كما تنتفع باختيارها الشخصي لما ترغب في شرائه، ثم إنها تتفادى غش الخدم وسرقاتهم.

وإذا تذكرنا أن الصحة على المستوى العادي فقط، تتطلب الحركة والمشى كل يوم، فإن الاستغناء عن الخدم يوفر لربة البيت مستوى حسناً من الصحة التي يتألف منها جزء كبير من الجمال، بل الصحة النفسية تحتاج إلى مثل هذه الحركة والمشى كل يوم؛ لأن فيها ما يشغل عن الهموم الصغيرة، كما أن الاهتمام والتفكير في الأثمان واختيار السلعة كل هذا يحركّ الذهن إلى الذكاء بدلاً من أن يُترك راكداً بالتزام الزوجة للبيت.

وربما كان أكبر الموانع للسيدات من الاستغناء عن الخدم والقيام بأنفسهن بشراء حاجات البيت من السوق، هو إحساسهن بأن هذا يعيبهن، وهذا الإحساس هو بعض ما ورثنا من أخلاق إقطاعية قديمة، وعندما يسودنا النظام الديمقراطي لن نجد أي عيب من

الاستقلال بالخدمة لأنفسنا، في أوروبا الآن قد يبلغ الإيراد العام للبيت ألفين من الجنيهات في السنة، ومع ذلك لا تفكر ربة البيت في استخدام خادم.

والصحة، كما قلت، تطالبنا بالعمل، وحين أنظر إلى ربة البيت المرتاحة الوادعة التي تأمر فتُجاب، وأقارن حالها بالخادمة التي تمسح البلاط وتقضي الحاجات من الحوانيت المجاورة، أقرر في نفسي أن هذه الخادمة النحيفة التي تمتاز بما نسميه خصرًا، والتي تبدو عضلاتها في ذراعيها وساقها وبطنها، هذه الخادمة أصح جسمًا من سيدتها المترهلة السمينة المرتاحة، وهي أصح؛ لأنها تعمل وتجهد، وستعيش بلا شك أكثر مما تعيش سيدتها، وربما تزيد عليها في العمر بعشرين سنة.

ولو كنا كلنا نعمل ونجهد لما احتجنا إلى الرياضة بألوانها المختلفة، هذه الرياضة التي اخترعت في الأصل لأبناء الطبقات المترفة في إنجلترا كي يجدوا فيها عوضًا في حركة الجسم وتربية العضلات عن العمل والجهد للإنتاج العام.

والاستغناء عن الخدم يحمل في أحيان كثيرة على استخدام الزوج والأبناء، وهذا حسن؛ لأن الزوج حين يشترك في بعض الأعمال المنزلية، يعرف شيئًا أو أشياء عن الأعباء التي تتحملها زوجته ويقدرها لذلك، كما أن استخدام الأبناء وهم بعد صبيان ينبه ذكاءهم في تقدير السلعة التي يكلفون شراءها، كما أنهم يتعلمون الخدمة، فتبقى أصلًا من الأصول الأخلاقية في كيانهم النفسي طيلة حياتهم، فينأون عن عار التعطل، أو الرغبة في الكسب غير المشروع، ويحترمون العاملين.

وأسوأ ما في الخادم إحساسه أنه خادم يمتن في الأعمال التي نَصَفُها — بغير حق — بأنها خسيصة، وقصْدنا أن نقول: إنها غير نظيفة؛ إذ ليست فيها أية خِسة، وإذا كان في البيت من الأقدار ما يحتاج إلى تنظيفه منها؛ فإن الذي أحدث الأقدار أولى باللوم والخلل، وليس هو الخادم بالطبع؛ لأنه هو ينظف ويمسح ويجلو، ولكننا مع ذلك لا ننكر أن إحساس الخادم سيئ، وهو أسوأ ما يكون إذا كبر ووجد عملاً كاسبًا مستقبلاً يرفعه إلى مقام أسياده السابقين، فإن إحساسه هنا يعود مرًا أليماً، وخاصة إذا كان حظه قد أوقعه مع سيدة كانت تجد لذة في السباب والتعنيف، أو تمد يدها بالضرب على سبيل التأديب في زعمها، وهي إنما كانت تفرج في أغلب الحالات بهذا الضرب عن كروبها وتوتراتها.

والأطفال الذين ينشئون وهم يسمعون كلمات السباب والتعنيف من والدتهم للخادم أسوأ الأمثلة في نشأتهم وتربيتهم، وقلَّ أن توجد ربة بيت لا تمارس السباب والتعنيف للخدم أمام أبنائها.

وهناك من المخترعات العصرية ما يجعل الاستغناء عن الخدم ممكناً حتى في أغنى البيوت، فإن التليفون خادم عظيم نستطيع به أن نخاطب عشرة متاجر كل يوم إذا شئنا، ونطلب منها ما نحتاج إليه من طعام أو قماش أو غيرهما، ثم هذه الثلاجات التي تحفظ الأطعمة سليمة لأسبوع أو عشرة أيام تغنينا عن الخروج كل يوم للشراء، ولكن لا يتيسر التليفون والثلاجة لجميع البيوت، والخروج كل يوم للشراء هو، كما قلت، نزهة يومية إذا تعودتها الزوجة فإنها لن تستغني عنها للميزات التي تجدها فيها في صحتها الجسمية والسيكولوجية، والإنسان لا يسعد ولا يتذكى إلا إذا اختلط بالمجتمع، والاستغناء عن الخدم ينقل الزوجة من حبسة البيت إلى انفساح جديد مثمر بالمعاملة اليومية مع الناس، والمعاينة للأشياء والسلع، أي ينقلها إلى الاجتماع بدلاً من الاعتزال.

ونحن نعيش في مجتمع نزع أنه ديمقراطي، وهو إذا لم يكن كذلك الآن فإنه سوف يكون كذلك بعد سنوات، وقد ألغى الخدم من المجتمعات الديمقراطية إلغاء يكاد يكون تاماً، ولا بد أن هذا الذي حدث فيها سيحدث مثله في بلادنا، وهذا تطور حسن، تطور نحو الديمقراطية والمساواة، ويجب أن نستعد له بتهيئة بناتنا لأن يخدمن أنفسهن قبل الزواج وبعده.

والاستغناء عن الخدم هو إفراج عن اليد العاملة المصرية كي تعمل في الإنتاج الكبير في المصانع والمتاجر التي سوف تحتاج إلى أكبر عدد من العمال، كما أنه إفراج عن الصبيان (من الجنسين) الذين يعطلون بالخدمة المنزلية عن التعلم في المدرسة.

إن في القاهرة أحياء أجنبية يكاد يكون تسعة أعشار السكان فيها من الأجانب، ولهذه الأحياء أسواق لبيع البقول واللحوم، وكثيراً ما تحملني المصادفة على أن أمر بها وأتأمل ما فيها من السلع وأشخاص المشترين، وهم جميعهم تقريباً من السيدات ربّات البيوت، أعرفهن بـسيمَاهُن وفساتينهن، وقليلًا ما أجد خادماً بينهن، ومع كل منهن شبكة لحمل ما تشتريه.

إني أود لو أرى سيداتنا تفعلن ذلك أيضاً في الحدود الممكنة؛ إذ إن هناك ظروفًا تحتم استخدام الخدم، ولكن هذه الظروف قليلة بل نادرة.

الليلة الأولى للزواج

الليلة الأولى في الزواج تخلف أثرها الذي لن ينسى طوال السنين القادمة، وليس هذا غريباً إذا تذكرنا أن هذه الليلة قد حلمت بها الفتاة، وتخيلها الشاب قبل الزواج، وكل منهما قد اجتريا في ذهنه أياماً وليالي.

وبذلك يجب أن تكون هذه الليلة وفق الأحلام الماضية مملوءة بالجمال والرقّة والحب، مثيرة للسعادة والسرور واللذة، خالية من الفظاظة والجلافة والارتباك، حتى تعود ذكرها في السنين القادمة مثاراً للسرور وليس للغضب.

واحتفالاتنا الاجتماعية بليلة الزواج الأولى بدعوة الأقارب والأصدقاء بالعشاء والسهرة وبالتهاني والهدايا، هذه الاحتفالات تكسب الليلة الأولى للزواج مقاماً كبيراً في نفسي الزوجين، وتجعلهما يحسان أنهما قد شرعا في مرحلة جديدة من حياتيهما؛ ولذلك لن تنسى التفاصيل الصغيرة التي تمر منهما في هذه الليلة.

وقد كنا نتزوج إلى وقت قريب وفق العادات الريفية، فيما نسميه «فض البكارة»، فكان العريس يدخل على عروسه بحضور والدتها وربما بعض الأقارب من خالة أو عمّة، فتعصب الوالدة أصبعه السبابة بعمامة غليظة من القماش الخشن الذي يجرح، ثم يشرع هو في جرح العروس بإدخال أصبعه في المهبل، فإذا لم يخرج الدم الغزير عاودت الأم تكبير العمامة بزيادة في اللفائف من القماش الخشن، وحضّت العريس على أن يزيد تحريك أصبعه كأنه يحفر، وعندئذ يحدث الجرح المطلوب ويغزر الدم، فيخرج المنديل مضرّجاً، وتتباهى الأم بأن ابنتها بررت شرفها، وأنها عذراء لا غش فيها.

وكثيراً ما كان يحدث نزع مؤلم خطر من إجراء هذا العمل الوحشي، وكثيراً ما كانت تبقى العروس في ألم نابض لا يطاق نحو شهرين عقب هذه الليلة الأولى، التي تذكرها عندئذٍ بآلامها بدلاً من أن تذكر بمسراتها.

وأذكر أن امرأة من الفلاحات صرحت لي ذات يوم بأنها تأملت من «فض البكارة» في الليلة الأولى من الزواج أكثر مما تأملت من ولادة ابنها البكر.

ولكن لما شاعت الحضارة الغربية العصرية بيننا أهملنا هذه العادة وأخذنا بالأسلوب الطبيعى، ولكن بقيت عقيدة ريفية بشأن دم البكارة، ذلك أن كثيرين من الشبان، بل كثيرات من الفتيات، يعتقدون أن هذا الدم ضرورة لا غنى عنها لإثبات طهارة الفتاة، وأنها لم تعرف قط شاباً قبل الزواج.

وهذه المأساة ربما تخلف آثاراً من السخط والحزن، بل العدوان، وربما تؤدي إلى الطلاق العاجل، وهي على كل حال لن تترك أحد الزوجين دون أن تحدث له صدمة سيكولوجية تقوم على الشبهة بأن الزواج لم يكن طاهرًا وأن الزوجة لم تكن عذراء. وهذا كله سخف.

وذلك أن الزوج الذي يأخذ بالأسلوب الطبيعى دون استعمال أصبعه السبابة لن يجد ما كان ينتظر مما تعلمه وسمع به عن الدم، أو هو يجد قطرة أو قطرات لا يلتفت إليها، و ٩٩ في المائة من الفتيات العذارى على هذه الحال، يمكن إتمام العمل الجنسي معهن دون نزول الدم، وهن لن يزول غشاء البكارة منهن تمامًا إلا بعد أن يلدن، وعلى الشاب أن يعرف أن الدم الشهري ينزل من خلايا هذا الغشاء الذي يحتوي خروفاً تتسع وتضيق، أو ينفتح أحدها على الآخر كي يخرج الدم الشهري، ومن خلال هذه الخروق في الغشاء المطاط يمكن إتمام الاتصال الجنسي بلا إراقة لقطرة واحدة من الدم، ما دام الأسلوب الطبيعى يتبع في هذا الاتصال، وإذا كان هناك شيء من الدم، فهو قطرات لا تكاد تلتفت إليها الفتاة أو الشاب.

ولكننا ورثنا عقيدة ريفية بأن الدم ضرورة في الليلة الأولى من الزواج، وقد كان ضرورة بالفعل حين كان العريس يعصب أصبعه بلفات من القماش الخشن حتى يجرح الفتاة، وكثيراً ما كان يجرحها جرحاً خطيراً.

وهناك بالطبع فتيات ينزل منهن الدم لأقل مساس، هؤلاء هن القلة، حتى لا يزدن على واحدة في المائة، وهذه الواحدة هي الشاذة، أما الباقيات وهن ٩٩ في المائة فسويّات ليس بهن شذوذ، والأغلب أن هذه الفتاة الشاذة كانت تشكو قبل الزواج بتعب وألم وقت العادة الشهرية؛ لأن الخروق في غطاء البكارة كانت صغيرة لا تسمح للدم بالمسيل السهل. ولذلك يجب أن نعمم هذه المعارف بين الشبان والفتيات حتى يسلموا بالحقائق، وحتى لا تنشأ بينهم المنازعات على أوهام، فإني أعرف حوادث طلاق كانت علتها الأولى هذا الوهم القاتل بضرورة الدم في الليلة الأولى من الزواج.

وعندما لا يكون طلاق تكون المعايير للزوجة بأنها لم تكن عذراء، وتذل المسكينة لأنها لا تعرف كيف تنفي عن نفسها هذه التهمة مع يقينها بأنها كانت طاهرة، ولكن قد تداخلها شكوك بعد ذلك بأنها قد انتهكت مثلاً وهي نائمة، فيكون الشك المقيم أذى يتعس حياتها، وهذا الشك قد يثير أمراضاً نفسية يسيرة أو خطيرة.

قبل نحو عام كنتُ في أحد المستشفيات الريفية، وصادفت زيارتي وجود زوجة في المخاض، فلما كشف عنها الطبيب المولّد قال لي في لهجة عابثة: إنها لا تزال عذراء، وسمعت المرضات هذا القول فشرعن يعبثن ويمرحن بأحاديث طريفة عن الوالدة العذراء، وكان الزوج يزور زوجته ويلطفها بالهدايا، ويدعو لها أبرّ الدعاء، ولكن لشد ما كانت دهشته حين استقبلته بالسباب، واتهمته بأنه «خنثى» أي ليس رجلاً مثل كل الرجال الذي يفضون بكارة عرائسهن في الليلة الأولى من الزواج.

وزادت المرضات في العبث والضحك حتى إن الرجل لم يتحمل هذا المزاح، على الرغم من حبه لزوجته، فتركها بالمستشفى وخرج لا يعود.

إننا يجب أن نمحو هذه المأساة، وأن نصرح بالحقائق، فلا نترك الأوهام الموروثة تدمر العائلات.

إن الاعتقاد العامّ هو أن الليلة الأولى للعروس هي ليلة الطرب والحب، ولكن الواقع أن كثيرات من العرائس يجدن فيها القلق والخوف من أنهن لن ينسكب منهن دم يبرر شرفهن، فعلياً لهذا السبب أن نبين الزيف والضرر في هذا الاعتقاد.

كيف نجعل أقرباءنا أصدقاء

تسلمت قبل أسابيع خطابًا من أحد أصدقائي ذكر لي فيه أنه فقد صديقًا وفيًا كان عزيزًا عليه على الرغم من أنه كان قريبه.

والحق أنه يندر أن يصادق أحدنا قريبًا له، إلا في حال تكاد تكون مفردة، وهي أن تكون الأسرة فقيرة، فلا تنازع على ميراث أو اشتراك في أعمال مالية تدعو إلى الخلاف.

بل أحيانًا تكون مصاهرة الأقرباء أدعى إلى الخلاف من مصاهرة الغرباء على الرغم مما نعتقد حين نسلم بالسطحيات بدلًا من أن نتعمق الأعماق.

والواقع الذي نشاهده في كل وقت أن الخلافات لا تنقطع بين أفراد الأسرة الواحدة، بل أحيانًا بين العائلة الواحدة، ومرجع ذلك إلى طمع أحد أفرادها في أموال الباقين، أو حرمان البنات من الميراث، أو إثثار أحد الورثة على إخوته لسبب ما، أو قد يكون مرجع الخلاف إلى احتكاكات سيكولوجية تنشأ من الاقتراب الذي يجعل المقارنة المؤلمة بين أبناء البعض الآخر من الأسرة الواحدة.

ولكن المال هو العلة الأولى للخلاف؛ ولذلك كثيرًا ما نجد وفاءً وسلامًا في العائلة الصغيرة أو الأسرة الكبيرة إذا لم يكن هناك ميراث أو اشتراك في أموال، فالإخوة يحب بعضهم بعضًا ويتعاونون، والأخوال والأعمام يزورون أقاربهم ويسألون عنهم ويعطفون عليهم، وهنا نكاد نعد الفقر فضيلة أو وسيلة إلى الفضيلة.

ولكن حيث يكون الميراث والورثة والأخ الأكبر الذي يطمع في الرياسة والزعامة والزيادة في الدخل، أو حيث يكون البنات المحرومات أو شبه المحرومات، أو حيث تكون البيوع المزيفة التي تؤثر إحدى الزوجات أو أحد الأبناء، حيث يكون ذلك يكون الخلاف الذي لا ينقطع والبغض الذي لا تخمد حدته على مدى السنين.

ذكرت لي سيدة في السبعين أنها حين زارت شقيقها وهو في فراش الموت، قد أصابه شلل جعل يده اليمنى تهتز في حركة لا تنقطع، لم تحس العطف عليه قدر ما أحسّت أن هذه اليد هي التي كتبت عقد البيع السوري من أبيها له في جميع ممتلكاته، مع حرمانها هي وأخواتها من البنات الحرمان التام.

ومع أنني كرهت هذه السيدة وهي تقصّ القصة المؤلة، فإني لم أتمالك الإحساس بأنها تعذر لهذا الحقد الذي لم يتركها مدة أربعين سنة.

هو الأموال والتركات والتمييزات وتفاوتات الموارث، تعمل جميعها لإثارة البغض واستبقائه السنين الطويلة، بحيث يغبط الإنسان أولئك الفقراء الذين يحب بعضهم بعضاً لأنهم لم يجدوا ميراً يختلفون عليه.

زد على هذا اعتبارات وآراء سخيفة تجعل من الأخ الأكبر بديلاً من الأب، فيستغل هذا المركز، ويرفض قسمة الميراث بينه وبين إخوته، ويمشي عندئذ بين أفراد العائلة ناس، إما لؤماء وإما مغفلون، يزعمون البركة في اللمة والوفاق في الجماعة، وينتفع الأخ الأكبر بكل هذه السخافات، ويستأثر بالتركة، لا يترك منها لإخوته إلا القليل الذي لا يغني، ويخجل هؤلاء من مقاضاته في المحاكم؛ لأن «العقلاء» يقولون بالوفاق، وأن البركة في اللمة، ولا يمكن في هذه الحال إلا أن يأخذ البغض مكان الحب.

وقد أشرتُ إلى الاحتكاكات السيكولوجية بين أفراد الأسرة، فما هو أن تتزوج إحدى الفتيات زواجاً موفقاً حتى تنبعث الإشاعات السافلة من أقاربها، وما هو أن ينجح أحد أبنائها حتى تثار حوله أقاويل، وما هو أن يصيب أحد نجاحاً في تجارة أو أي عمل آخر حتى يُتَّهم بأن نجاحه يُعزى إلى خيانتة أو سوء أخلاقه أو نحو ذلك، وكل هذا يكاد يكون طبيعياً إذا كان أفراد الأسرة يقيمون في بلدة واحدة أو شارع واحد، ولكن هذا الحسد يخف ويكاد يزول إذا كان أفراد الأسرة متفرقين لا يتزاورون كثيراً، ومعنى قولنا هذا أنه إذا كان وضع الأقارب يشبه وضع الأغراب في الابتعاد الجغرافي، الذي يؤدي إلى ابتعاد نفسي، فإن البغض يزول.

كيف نجعل أقرباءنا أصدقاءنا؟

أول ذلك ألا نميز أحداً على الآخرين بزيادة في الميراث أو حتى بزيادة في التعليم الذي يؤدي إلى تفوق أحدهم على الآخرين، والمسئولون هنا هم الآباء والأمهات، فإن كثيراً من الآباء إذا ماتت الزوجة الأولى يتزوجون أخرى، ويميزون أبناء الثانية على أبناء الأولى، وذلك لفرط ما تضغط الزوجة، أي والدتهم الشابة زوجها، بدعوى حاجة الأولاد إلى تعليم وغير

ذلك، فالذي يزرع بذور الشر والشقاق هنا هو الأب، وأحياناً تفعل الأم مثل ذلك، ولكن هذا قليل.

إن التمييز بين ابن وآخر في الميراث هو أعظم كارثة تقع بالأبناء وتلقي بينهم ألوان الشرور، ولم تخترع بعد القوانين التي يمكنها أن تتفادى من هذا التمييز، فإن البيوع الصورية وكتابة الصكوك التي تقبل التحويل ونحو ذلك يتيح للأب أن يمنح ويمنع كما يشاء، وليس هناك من ضمان للأبناء سوى الشرف والإنسانية اللذين إذا عدمهما أب فلن يكون بعدهما ضمان للأبناء في العدل، ثم فيما هو أكثر من العدل، وهو أن يحب بعضهم بعضاً بعد وفاته، وكثيراً ما وجدت أبناء يلعنون أباهم؛ لأنه ارتكب جريمة التمييز لأحد أو لبعض الورثة دونهم.

وكثيراً ما وجدت نساء فقيرات، مع أن ما كان يملكه أبوهن من العقار والأموال كان يكفي لرفعهن إلى مستوى الرفاهية لو أنه لم يحرمهن الحرمان الكامل من الميراث. فإذا تركنا المواريث فإنه يبقى هناك مجال آخر للخلاف هو زواج الأقارب، فإن هذا الزواج، حتى قبل أن يتم، هو موضوع الخلاف الذي لا ينقطع على الدوام في بعض الأسر، ولكن هذا لا ينفي أن هناك شذوذاً بل شذوذات لهذه القاعدة.

وأخيراً يحسن بنا أن نتجنب الاشتراك في أعمال مالية مع أقاربنا؛ لأن الذين يوسوسون من أعضاء الأسرة كثيرون، وكثيراً ما تعود هذه الوسوسة إلى الحسد، ولكنها كثيراً أيضاً ما تثمر الثمرات المرّة.

مشكلة العادة السرية

وصل إليّ (يناير ١٩٥٦) هذا الخطاب التالي الذي أنشره هنا بعد حذف بعض ما يستغنى عنه:

أعرض عليكم مشكلة حيرتني خمسة عشر عاماً أو يزيد، ولا أدري كيف السبيل إلى الخروج منها حتى كاد ينتهي بي الأمر إلى اليأس المطلق. إنني شاب في الثالثة والثلاثين من عمري أحمل شهادة جامعية عالية وأستعد للدكتوراه وأشغل منصباً حكومياً محترماً، نشأت نشأة محافظة بعيدة عن الاختلاط بالجنس الآخر، كنت وما زلت مشغولاً بالقراءة والاطلاع والتزود من الثقافة، ولكن يا سيدي الكريم أعاني مرضاً أزمن عندي حتى أصبح لصيقاً بي، هذا المرض، أو ما سميته في مستهل خطابي مشكلة، هذه المشكلة يا سيدي هي العادة السرية.

إنني الآن أريد جاهداً أن أتخلص من هذه العادة المزدولة، لا لشيء إلا أنه لا ينبغي لشخص في سني وفي ثقافتي أن يزاوِل هذه العملية الحقيرة الدنيئة، فضلاً عن ضررها الشديد على أعصابي المرهقة.

إنني شخصياً أعتقد أن لعدم اختلاطي بالجنس الآخر دخلاً كبيراً في استفحال أمر هذه العادة وبقائها حتى هذا السن، فقد كانت النشأة الدينية التي نشأت عليها سبباً كبيراً في إبعادي عن الجنس الآخر، بل النفور منه، فلما أن تفتّح العقل وشعت أنواره إذ بي أجدني غير قادر على اقتحام أسوار الجنس الآخر، وعلى فرض وجود هذه القدرة فإنه لا توجد لديّ مجالات الاختلاط، بل

في الظروف الضئيلة التي أتيت لي فيها الاختلاط كاد يؤدي بي هذا الاختلاط إلى أعمال لا يستسيغها الشرف أو الضمير كنتيجة للحرمان الشديد الذي أعانيه. وإذا كان في الزواج شفاء من هذا الداء الويل فإنه للأسف لم تمكني ظروف في الخاصة — عائلية ومالية — من الإقدام على الزواج، هذا فضلاً عن أنني في شك من مدى صلاحيتي للزواج نظراً لإفراطي في الماضي في مزاوله هذه العادة. والإرادة هذه الكلمة التي نسمعها دائماً في هذا المجال، الإرادة يا سيدي تسعفني في كل أمر من أمور حياتي، ولكنها إذا ما أسعفتني في البعد عن هذه العادة فيلإ حد محدود وإلى أمد قصير. ما الفعل وأنا رجل بحث ودراسة مستمرة فضلاً عن كثرة العمل الذي أقوم به، لا أجد متسعاً من الوقت يسمح لي بالاشتراك في النوادي الرياضية أو الاجتماعية إذا كان لها ثمة فائدة أكيدة في هذا السبيل. إنني أشمئز كل الاشمئزاز من مزاولتي لهذه العادة — رغم قلة مرات المزاوله بالنسبة للماضي — وأحتقر نفسي إذ يصرعني هذا العمل الحقي، وأنا الشخص الذي أعتز بشخصيتي وكرامتي وعقلي وتفكيري.

وأول ما ألفتت إليه في صدر هذا الخطاب هو أن جميع مشاكلنا السيكلوجية تعود إلى عادات وممارسات وأهداف اجتماعية معينة، ولكل مجتمع لهذا السبب أمراضه السيكلوجية الخاصة، فحيث يكون الانفصال بين الجنسين يكون الشذوذ الجنسي، وحيث يكون التأخر في سن الزواج مع إلغاء البغاء تكون العادة السرية مع الشذوذ الجنسي أو بدونه.

فالشهوة الجنسية من الشهوات الصارخة، وهي عندما لا تجد الهدف الطبيعي تبحث عن الهدف الزائف، وليس هذا مقصوراً على الإنسان، فإن الحيوان أيضاً يقع في الشذوذ حين يُحرم الذكر الأنثى، فإن الشذوذ الجنسي والعادة السرية كلاهما يفشو بين بعض القردة الاجتماعية، حين يستولي كبيرها على الإناث جميعهن ويستأثر بهن ويضرب كل ذكر يحاول الاقتراب منهن، فإن جميع الذكور عندئذ يستعمل بعضها بعضاً في الشذوذ الجنسي، كما أنها أيضاً تستعمل «العادة السرية».

وقد ألغينا البغاء في مصر، مع أن الانفصال القائم بين الجنسين كان يحتم علينا استبقاءه، وإذا جاز للأوروبيين إلغاؤه فلا يجوز هذا لنا ونحن ما زلنا نتعثر في الاختلاط الجنسي.

ذلك أن الأوروبيين باختلاطهم الاجتماعي بين الجنسين لا تغيب صورة المرأة عن الرجل أو صورة الرجل عن المرأة، فيبقى كلاهما بعيداً عن الشذوذ، أي عن حب جنسه هو دون الجنس الآخر، وإذا كان هناك شذوذ فهو من القلة بحيث لا يقارن بالحال عندنا، حيث يبعث الانفصال بين الجنسين عليه.

وكذلك الشأن في العادة السرية، أو النشاط الجنسي الانفرادي، فإن هذه العادة من الحقارة بحيث يأنف الرجل الذي عرف الحب السليم من ممارستها، وهذا الحب ممكن في أوروبا، وهو كثير الحدوث، بينما هو يكاد يكون مستحيلاً في بعض بيئاتنا الاجتماعية، كما هو نادر الحدوث في البيئات الأخرى.

ولا أستطيع أن أنصح للمغمس في العادة السرية بأن يتزوج؛ إذ يجب أن يشفى من هذه العادة قبل الزواج؛ لأن هناك خطراً من بقائها بعد الزواج، ويجب ألا يتزوج الشاب كي يجعل الزواج محل التجارب التي قد تخبئ أو تنجح، كما أن الصدمة العنيفة التي تتلقاها عروسه عندما تعرف فيه هذه العادة قد تسود حياتها، بل حياتها في المستقبل، حتى بعد الشفاء.

والنصيحة التي أجدني مضطراً إلى إسائها لهذا الشاب هي: اختلط بالنساء قبل الزواج، ولكن اختر البيئات النظيفة المحترمة؛ لأنك إذا اختلطت ببغي سافرة فاحشة فالأغلب أنك لن تشفى؛ لأنك ستشتمز وتجد أن العادة السرية أهون من فحش هذه المرأة، وإنما عليك أن تختلط اختلاطاً جميلاً شريفاً، يخلو من الشهوة الجنسية، وذلك كي تتعود عادات نفسية جديدة، وكي ترتسم من جديد صورة المرأة في ذهنك الذي أفسده الانفصال بين الجنسين.

وإذا لم يتيسر لك هذا الاختلاط، فعليك أن ترافق بعض أصدقائك إلى المراقص؛ حيث يتعلم الشبان والفتيات الرقص، فتتعلم معهم، وراقص الفتيات، وأنفق بسخاء ولا تبخل، وصادق في شرف بعض هؤلاء الفتيات، ورافقهن في غير أوقات الرقص في نزاهات مختلفة. وقصدي من كل هذه المحاولات أن تستعيد صورة المرأة وإحساس الجنس السليم في ذهنك، مع بعث الشهامة في نفسك كي تعرف وتوقن الشرف في العلاقة الجنسية، والسفالة والخسة في العادة السرية أو الشذوذ الجنسي.

وأنت بعد ذلك جدير بأن تفكر تفكيراً سليماً في العلاج.

وإذا أيقنت بأنك قد ارتفعت على خسة العادة السرية وأنت أصبحت تشتهي المرأة اشتهاً سليماً وأنت تلتفت إلى مفاتن النساء وتقدرها، إذا وصلت إلى هذه الحال فتتزوج بلا تردد.

العادة السرية كنتيجة للكرب النفسي

مرجع العادة السرية أو اللذة الجنسية الانفرادية هو في الاعتقاد العامّ توتر جنسي فقط، ولكنه كثيرًا ما يعود أيضًا إلى توترات اجتماعية أو مدرسية أو عائلية. ونستطيع أن نفهم ذلك من الحال النفسية التي يعانيها الشاب المنغمس في هذه العادة فيما بين سن ١٤ وسن ١٩.

ففي هذه السن يعاني إرهاب الدروس ويشعر في التفكير في مستقبله، وقد يخيب في الامتحان، وتكبر هذه الخيبة في نفسه سواء بحق أم بباطل؛ إذ إن هناك نظامًا تجعل هذه الخيبة أحيانًا نهائية، تفرض اليأس على الشاب بدلًا من أن تفتح له الأمل بالنجاح في تجربة أخرى، بل قد يكون هناك من نظام عائلته ما يجعله يوقن أن خيبته هذه سوف تحمل أبويه على الإهمال في تعليمه، وهناك عار الخيبة أيضًا، وهذا إحساس لا يطاق عند بعض المراهقين؛ لوطأة ما يلاقونه من توبيخ الآباء.

هذا الكرب، هذا الضيق النفسي، يحمل الشاب على أن يخفف منه بأن يعتمد إلى اللذة الجنسية الانفرادية كي يجد طربًا وقتيًا، وهو يجده بلا شك.

وقد ذكرت الخيبة في الامتحانات كسبب للرغبة في ممارسة هذه العادة، ولكن هناك أسبابًا أخرى، وإن تكن الامتحانات هي أحد الأسباب القوية، ذلك أن الشجار في العائلة، وما يحدثه من صراع داخلي للشباب، حيث يعجز عن التوفيق بينه وبين شقيق أكبر منه يتسلط عليه ويستبد به، أو بينه وبين أبويه، أو حين يجد تقديرًا مهينًا له بين أقرانه، أو نحو ذلك من الصعوبات.

ففي كل هذه الحالات يفرّج الشاب عن نفسه بالالتجاء إلى هذه العادة كي يجد طربًا وقتيًا يخفف من كربيه، ويجب علينا أن نعرف ذلك قبل أن نصف العلاج؛ لأننا يجب أن

نعالج المنغمس في هذه العادة من جميع وجوه حياته وتصرفاته واتجاهاته نحو المستقبل وعلاقته الاجتماعية وطموحه، وليس من حيث الأسباب المباشرة لهذا الانغماس فقط.

إنه مكروب ضائق خائف متشكك، وهذه الإحساسات تقلقه، فيجد التفرّج عنها بهذا الترفيه الوقتي، أو الارتفاع النفسي الوقتي، باللذة الانفرادية الجنسية.

ولو كان هذا الشاب في سن الأربعين أو الخمسين، وكان متزوجاً، ووجد مثل هذا الكرب أو الضيق، بسبب الخوف من الفقر أو الإفلاس أو ضياع الوظيفة أو العجز عن التصرف الاجتماعي أو الزوجي لرفقه عن نفسه بوسائل أخرى غير العادة السرية، وهو يجد هذا الترفيه ضرورياً، وقد يلجأ إلى الخمر.

فالخمر عنده، وهو في سن الأربعين، وهو متزوج، بمثابة العادة السرية عند الشاب المراهق غير المتزوج، وهو بين سن الخامسة عشرة والتاسعة عشرة.

وكما أننا نحتاج عندما نعالج المدمن للخمر إلى أن ننظر النظرة الشاملة إلى حياته كلها، ونطالبه بأن يغير نظرتة للعالم وللقيم وللمعاني الاجتماعية، كذلك يجب أن نعامل الشاب المراهق بأن نطالبه بأن يغير نظرتة للتوترات القائمة عنده بشأن مكانه في العائلة، وخوفه من الامتحانات وتشككه في المستقبل ... إلخ.

لا نعالج عادته السرية فقط، وإنما نعالج حياته كلها.

ويمكن بالطبع أن نفكر في التفاصيل، وعندي أن أول ذلك أن نحمله على الاختلاط بالجنس الآخر، فإنه هنا يحسُّ شهامة جديدة نحو الفتيات، تحمله في الأغلب إلى أن يربأ بنفسه عن ممارسة هذه العادة باعتبارها دون شهامته ورجولته ومكانته الاجتماعية.

ويجب أن توفر للشبان والفتيات هذه الفرصة، فرصة الاختلاط حتى يجدوا فيها التقويم فضلاً عن الترفيه الصحي، فلا يقعوا في هذه العادة.

ثم يجب أن نطمئن الشباب بأن ممارسة هذه العادة مرة أو مرتين كل أسبوع ليست مضرّة، وأن ٩٩ في المائة من الشبان قد فعلوا ذلك دون أي ضرر، ولكنها تكون مضرّة إذا كان من يمارسها بهذا القدر يعتقد أنها عادة وضيفة سافلة، أو أنها تضعف صحته وسف تحطمها، والضرر هنا من الاعتقاد وليس من العادة، وهذا الاعتقاد يحمل على التراخي، فلا يجد ولا يهتم، ولا يدرس ولا يلعب.

وهو عندما لا يجد ولا يهتم يهمل دروسه، فيزداد كربيه وضيقه ويأسه، ثم يعود إلى هذه العادة للتخفيف والترفيه.

فلنقل له أولاً وبعد أن نتفاهم معه على اتجاه حياته ومقدار فهمه للقيم الاجتماعية، لنقل له: لا تخف أي ضرر من هذه العادة إذا كنت معتدلاً.

ولنقل له ثانيًا: يجب أن تتجنب الخلوة التي تتيح للخواطر الجنسية مهاجمة عقلك، فإذا وجدت أن الفرصة تواتيك على الخلوة فاخرج من البيت واقصد إلى بعض إخوانك أو إلى أحد الأندية أو إلى السينما حتى تجتاز الفترة التي تحس فيها الكرب والضيق والتوتر. ونحب أن نكرر أن التوترات التي تؤدي إلى ممارسة هذه العادة كثيرًا ما تكون اجتماعية عائلية (وفي حالة التلميذ كثيرًا ما تكون دراسية) ونكرر أيضًا أن الالتجاء إلى هذه العادة هو بمثابة الالتجاء إلى الخمر عند المكروب المتوتر من الرجال المتزوجين أو العزب، ولو كانوا في سن الستين أو السبعين، فنحن هنا لا نعد الخمر في ذاتها سببًا لتوترات المحروم، وإنما هي دواء يلجأ إليه المكروب للتفريح، وكذلك الشأن في العادة السرية.

التوتر النفسي، وليس التوتر الجنسي، هو علة العادة السرية. وكما أن الرجل المرتاح نفسيًا لا يحتاج إلى الخمر، كذلك الشاب المراهق المرتاح نفسيًا لا يحتاج إلى العادة السرية.

وبعد ذلك نجد فائدة في هذه الكلمات التالية للسيكولوجي «إدوارد جريفيث»:

- (١) الإسراف وليس الاعتدال في ممارسة هذه العادة هو الذي يؤذي.
- (٢) توهّم الضرر عند المراهق يؤذي أحيانًا أكثر من ممارسة العادة نفسها.
- (٣) ضياع السائل المنوي يبعث الحسرة والأسف عند المراهق.
- ولكن ليس في هذا أي ضرر، وليس فيه ما يدعو إلى الحسرة والأسف؛ إذ هو يتجدد.
- (٤) كثيرون استطاعوا أن يمروا بسني المراهقة دون أن يحتاجوا إلى هذه العادة، ولم يفعلوا ذلك بالقهر والإلزام، وإنما لأنهم كانوا سعداء في حياتهم الاجتماعية.
- (٥) لن تحدث هذه العادة عجزًا جنسيًا في المستقبل.
- (٦) إذا أردت أن تتخلص من هذه العادة، فتخلص قبل كل شيء من المصاعب (أو ما تتوهمه أنه مصاعب) الاجتماعية والعائلية والدراسية.
- (٧) تجنب الظروف التي تتيح لك فرصة الاختلاء وممارسة العادة.
- (٨) تجنب الكتب والمجلات والأصدقاء الذين يثيرون في نفسك الخواطر الجنسية.
- (٩) صادق الشبان الذين يسيطرون على شهواتهم الجنسية والذين لا يمارسون هذه العادة.
- (١٠) أكثر من نشاطك خارج البيت حتى إذا عدت في المساء مثلًا كنت منهوگًا تحتاج إلى النوم، فتنام قبل أن تستولي عليك الخواطر الجنسية.

الأمراض النفسية أرستقراطية

مما يلاحظه السيكولوجيون أن المنتحرين، بل كذلك المرضى النفسيين، لا يكونون إلا بين المتعلمين بل المثقفين، أما الجهلاء فقلَّ أن تجد بينهم مريضاً نفسياً، وقلَّ أن تجد بينهم مَنْ تحدثه نفسه بالانتحار.

وعلة ذلك واضحة، وهي أنَّ الرجل الراقي المثقف يمرض أو ينتحر؛ لأنه يؤمن بقيم اجتماعية عالية، إذا أحسَّ أنه انزلق عنها، أو أنه عاجز عن تحقيقها، ابتأس وشقي، فيمرض.

ولكن الجاهل يخلو من هذه القيم، أو هو يؤمن بقيم رخيصة محدودة بمجمعه الذي لا يسمو عليه، فلا يجد التوترات التي يجدها الرجل الراقي المثقف.

هل يمكن الحيوان أن يفكر في الانتحار؟

إن الأمراض النفسية أمراض أرستقراطية في معنى ما.

يجب كي نمرض نفسياً أن نكون مثقفين إلى حدٍّ ما، لنا معانٍ وقيم اجتماعية، ولنا مطامع أكبر من واقعنا، ويجب أيضاً أن نجد بيننا وبين المجتمع خصومة في معنى ما، أي إنه بمبادئ وعاداته يصدمننا في أغراضنا، ويجب أن نجد في أنفسنا روح الثورة على هذه المبادئ والعادات؛ لأننا لا نؤمن بصحتها كل الإيمان أو نؤمن بضررها.

والجهل في هذه الاعتبارات يُعدُّ نعمة وسعادة، ولكن المعرفة مع ذلك لا تُعدُّ نقمة وشقاء، وإنما تُعدُّ جدًّا ورجولة وشرفاً.

ويجب أن ننشد الشرف بالعلم، ولا ننشد السعادة بالجهل.

وعندما نتأمل حياتنا في هذه الدنيا ونخلع عنها الإضافات والتزاويق الاجتماعية، وننتحرى القيم الحقيقية التي ترفعنا، نجد أن تثقيف أنهاننا طيلة أعمارنا، أي التربية

الشخصية، هي أعظم ما يجب أن نهدف إليه وليس الثراء، وليست المكانة الاجتماعية بشيء يذكر إلى جنب التربية الشخصية التي ننمو بها ونتغير ونتطور ونفهم الإنسان والكون بها. إذا كانت هذه التربية الشخصية تؤدي أحياناً إلى التوترات النفسية الخطيرة أو الخطرة فلا بأس في ذلك؛ لأنها تستحق هذه المخاطرة، وعلى كل حال يجب أن نذكر أن هذه المخاطرة لا تقع إلا في مجتمع سيئ يسرف في الحرمان والضغط والإرهاق للأفراد الراقين، وأغلبهم من أحرار الذهن المستقلين.

ولكن الذي يجب أن نقوله ونكرره أن المدرسة أو الجامعة لا يمكنها أن تزودنا بالتربية الشخصية النامية المتطورة؛ وذلك لأن كلا منهما تجد جذورها في المجتمع الذي نحيا فيه، فلا يمكنها أن تعارضه مهما فسد هذا المجتمع وأنتن وتقيح، وهذا هو ما ينتظر، ولكننا يعرف أننا كنا أيام فاروق نجعل صبياننا في المدارس يصيحون صباح كل يوم ويهتفون بنداءات في الدعاء له، بل لقد وقف أستاذ جامعي كبير يدعوه أمام الطلبة بعبارة: «صاحب مصر». ويقول: إن أخلاقه الشخصية (ولا تنس هنا وصف الشخصية) جديرة بأن يقتدي بها شباب الشعب المصري.

لا، إذا كنّا نريد أن نربي أنفسنا التربية الشخصية الناضجة فيجب أن نبدأ بها بعد المدرسة والجامعة.

ونمارسها في استقلال وتبصر، وحسبنا أن نتعلم من المدرسة والجامعة تلك الثقافة الهادئة، وأحياناً الراكدة، التي تهيننا لأنّ نتابع تربيتنا بالبحث عن غيرها، مما يبعث فينا النهضة والجرأة على اقتحام الأفكار.

والتربية الشخصية هي في النهاية تدريب الذكاء بالمعارف حتى نحسّ الفهم لأنفسنا ومجتمعنا والدنيا والكون، والرجل الذكي يحسّ أن من حقه أن يفهم، وألا يخشى الفهم، وألا يرضى بحياة الجهلة من الناس.

وتدريب الذكاء يطالبنا بأن ننظم حياتنا حتى نختبر ونقرأ، والاختبار هو الوسيلة المباشرة للمعرفة التي اختبرها غيرنا.

وليست الوسيلة الأولى متاحة لكلّ منّا، ولكن الوسيلة الثانية معروضة على الدوام لمن يطالبها، وذلك باقتناء الكتب التي يكتبها المؤلفون الراغبون في خدمة القارئ وتنبيهه وإيقاظه وتوجيهه، وهذا بالطبع إلى الالتفات إلى قيمة الجريدة والمجلة، فإن للخبر قيمة تثقيفية وتنبيهية لا تقدّر، وما دمنا نعيش في هذه الدنيا فيجب أن نتابع أحداثها بقراءة أخبارها.

إن العالم يهتزُّ هذه الأيام بخطر القنابل الذرية والهيدروجينية، ولكنه يهتزُّ أكثر بالمذاهب التي تتحرك هذه القنابل بقيادتها، والرجل الذي يجهل عن اختيار ورؤسا هذه المذاهب وهذه القنابل هو جاهل يحيا على مستوى الحيوان، وجهله خطر علينا جميعا. ولكن ليست هذه المذاهب هي كل ما يجب أن يشغل الذهن المدرب عند الرجل المثقف، فإن في العالم مشكلات لا تحصى، أكثرها أو بالأحرى جميعا، قد صارت مشكلات؛ لأنها تجمدت بالتقاليد؛ ولأن المجتمع الذي يحتضنها راكدا يجد أفرادها مشقة في التفكير البكر ربع ساعة، وهذا هو الشأن في مشكلات الزواج والطلاق والتعليم والصحة والثقافة والقضاء والاقتصاد، إلخ مما نعاني هذه الأيام.

هذه الأشياء جميعها قد أصبحت مشاكل؛ لأننا نعالجها بالتقاليد وليس بالتفكير البكر؛ ولذلك نعجز عن إصلاحها، وأعظم ما يجعل للتقاليد أو العادات القديمة الموروثة هذه القيمة هو الجهل، فلو كنا مثقفين، ولو كانت التربية الذاتية هدف كل فرد في الجمهور لكانت معالجة هذه المشكلات سهلة، وكان تطور مجتمعنا ميسورا.

ونقول: «كل فرد» ولكن هذا القول يراد به الهدف الأخير أو المثل الأعلى، أما في نظامنا الحاضر فإنه يكفينا أن نطالب أفراد الطبقة المتسلطة اقتصاديا وحكوميا بألا يهملوا تربيتهم الذاتية الشخصية بعد المدرسة أو الجامعة، وأن يعتمدوا في تثقيف أنفسهم على الشجاعة، بحيث يقرءون ويفكرون كما يريدون، ثم يعتقدون ما يريدون وفق ذكائهم المستنير وعقولهم المثقفة.

والشعب الذي يريد الحياة الحرة الشريفة في القرن العشرين يجب أن يبيح الثقافة الحرة، ولا يضع عليها قيودا تمنع تداول هذا الكتاب أو ذاك الآخر؛ لأن هذا المنع هو حظر على النمو الذهني للشعب، وهو حظر لا ينتج سوى الجهل بين أفراد الشعب، ثم تعرض هذا الشعب لخطر الهزيمة أو الإبادة.

إنهاض الشبان بعد سقوطهم

هناك من المصادفات السيئة ما يجعل الشاب ينشأ مدة طفولته ثم صباه في وسط يعمل على اعوجاج نفسه، فلا يرى القيم الصحيحة الرؤية الصادقة، ولا يجد الأخلاق القويمة التي يمكنه أن يستقيم بها في الحياة، وهذه المصادفات السيئة تكثر في بعض المجتمعات والبيئات دون الأخرى.

فقد يعيش الصبي مع زوجة الأب وزوج الأم، فلا يجد الأبوة أو الأمومة التي هي من حقه أو التي يستمتع بها سائر الصبيان، ولكن هذه الحال تفدح إذا كان أحد هذين الزوجين الغريبين قاسياً أو كارهاً للصبي، أو إذا كان لهذا الصبي إخوة تميزهم الأم أو الأب عليه في المعاملة، فهو هنا ينشأ في مجتمع صغير يحمله على أخلاق معينة تؤدي إلى اعوجاج شخصيته.

وليس من الضروري أن يكون أحد أبويه غريباً عنه، فقد يكون أبواه على غير وفاق، يجد كل يوم، بل كل ساعة، منهما أمارات النفور بينهما؛ حيث يرى المشادات والتوترات، وتنعكس هذه الحال في نفسه أسوأ الانعكاس، إذ هو ينشأ وهو يجهل كلمات الحب والحنان والرفقة والظُرف، ويعرف نقيضها من الكلمات الأخرى التي تؤدي إلى اعوجاجه.

بل هناك ما هو أقدح من كل ذلك؛ إذ قد يعيش الصبي في عائلة غير عائلته لظروف تحتم ذلك على أبويه، فيجد من قريب له أو غريب عنه فساداً جنسياً تتكون له منه عُقد نفسية تربك حياته وتعوج أخلاقه.

هذه بعض الظروف التي تجعل بعض الشبان ينشئون في فساد عظيم أو طفيف، وهم في حاجة إلى تقويم اعوجاجهم الذي تحدثه هذه الظروف التي لم يكن لهم يد في إيجادها.

ولنذكر بعض حالات معينة:

نشأ «س» في بيت جده الذي تزوج غير جدته، واستعملته هذه الزوجة خادماً داخل البيت فقط، أي إنها لم تكن تبعته لشراء الحاجات من السوق، وبالطبع كان يمكن بهذا الخروج إلى الحوانيت ومقابلة الناس وفهم الأسعار، أن يتحرك ذكاؤه، ولكنها لم تكن تفعل ذلك لئلا يقال: إنها جعلت منه خادماً، فقصرته نشاطه على الخدمة داخل البيت، حيث وقف ذكاؤه ولم يتحرك إلا في الشئون المنزلية الصغيرة.

وذكاؤنا اجتماعي يحتاج إلى الاختلاط بالناس والأشياء، ومعالجة الشئون والمشكلات التي تتجاوز حدود البيت، والمدرسة تحرك هذا الذكاء ببعض دراساتها، وأيضاً باختلاط الصبيان بعضهم ببعض.

ولكن «س» حُرِم المدرسة إلى سن العاشرة تقريباً، وكان إلى هذا مرمطون البيت؛ يغسل ويمسح وينظف، ولا يختلط بأحد، وبدت له زوجة أبيه، بل كذلك جده، كأنهما من الأرباب، ولم يكن واحد منهما يؤنسه، وكانت حياته حركة أوتوماتية تخلو من التعقُّل فضلاً عن الابتكار.

وذهب إلى المدرسة بعد هذه السن، فلزمه الجبن الذي تعلمه من البيت حين كان يخاف جده وزوجته، ولازمته أخلاقه الانفرادية فلم يعرف كيف يلعب ويرافق زملاءه، وكان يخشى الاختلاط بهم، ولم يجد الرغبة في الارتقاء بالدرس، فتوالت عليه السنون وهو لا يتجاوز السنة الثانية في المدرسة الابتدائية، ولم يكن يعبأ بذلك؛ إذ هو فقد إرادة الحياة، فكان يحيا بلا قصد، ولم يتعلم كيف يهتم بأي شيء فلم يطمح.

وجميع الذين تأملوه حكموا بأنه غبي أو مغفل، وأنه لا يرجى منه ارتقاء.

وخرج من المدرسة وهو على مستوى منخفض من المعارف المدرسية، يقرأ في صعوبة وتمهل وتعثّر، ولا يبالي أن يعرف شيئاً في هذه الدنيا، وعاد خادماً في بيت جده، ولم يكن أحد يلوم جده أو زوجته على استعماله خادماً؛ لأن تبادل بعض الكلمات معه «س» كان يثبت غفلته، وأنه ليس كفوفاً لأن يؤدي عملاً آخر سوى الخدمة المنزلية.

كان في سُبَاتٍ نفسيٍّ، إذا تُرك نام، وإذا وجد خادماً آخر في البيت تحدث معه عن البيت، وتنادر معه عن موضوعات منزلية سخيفة.

ثم مات الجد ووجد نفسه مالكا لسبعة فدادين تتيح له العيش المتواضع لا الوضيع، وظهر له أقارب كانوا يجهلونه أو كانت زوجة الجد تحرص على أن تحول بينه وبينهم، وكان عندئذٍ في الخامسة عشرة، ولكن ذكاؤه لم يكن ليزيد على ذكاء صبي في السابعة أو الثامنة، وفصل من أرملة جده، ونُقل إلى بيت خاله.

وجرى الفحص السيكلوجي على «س» وأثبت هذا الفحص أن كفاءته الوراثة الطبيعية عادية ليس بها أي نقص، وإنما جاء النقص من التربية السابقة؛ من حَبْسَةِ البيت ومنعه من الاختبارات، وقصر نشاطه على غسل الأطباق ومسح البلاط، وإغلاق عقله عن البحث والتساؤل.

كيف يتذكى العقل من هذه الأعمال؟

إنما الذكاء يحتاج إلى التدريب في هذه الدنيا الواسعة.

يحتاج أيام الصبا إلى رفقة الزملاء في اللعب، وإلى دراسة بعض الموضوعات في المدرسة، وإلى السينما، وإلى الوقوف على حركة الشوارع وتوقي أخطارها، وإلى رؤية الصور وقراءة القصص في مجلات الصبيان، وإلى الحديث مع الأبوين أو مَنْ يقوم مقامهما؛ حديث الحب والنور، وإلى الاختلاط بالبنات، وإلى بعض النقود ينفقها كل يوم في حاجاته الخاصة، ويتعلم منها مبادئ الحساب ثم مبادئ المعاملات.

أما حبسة البيت فتغلق الذكاء، وقد أغلقته علينا نساء الجيل الماضي في بلادنا.

ومن هنا كانت النصيحة لرد الذكاء إلى «س»، ولم يكن هذا الرد سهلاً، فإنه كان قد استقر على الغفلة، وارتضاها لنفسه وعقله، كان أبلهًا بلا بلاهة طبيعية.

وكانت النصيحة لخاله أن يبدأ في ترشيده بإعطائه بعض النقود الصغيرة كي يشتري بها الحلوى المغربية، حتى يعرف الفرق بين المليم والقرش، ثم بين خمسة القروش وعشرة القروش، وكانت السوق الريفية (إذ كان يعيش في قرية) مثارًا لذكائه؛ حلوى وحيوانات ودجاج وحمّام، وكان خاله يكلفه مع مرافق كبير لحراسته وتنبيهه شراء حاجات المنزل، كاللحم والأرز والصابون، ثم تعلم كيف يقود البقرة إلى الحقل، ورأى كيف ينزو الثور على البقرة وشرع يفهم ما لا يراه، وما يجد في غريزته الجنسية المستيقظة، وصار يسأل ويستطلع.

واستأجر له خاله معلمًا شرع يعلمه ما يلي السنة الثانية الابتدائية من جغرافيا إلى تاريخ إلى دين إلى حساب إلى هجاء صحيح ... إلخ.

ثم نصح خاله بأن يجعله يستقبل الضيوف ويقعد معهم رجالًا ونساء ويفهم أحاديثهم.

وعرفه خاله بثروته، وقيمة إيجارات أرضه، وصار يسلمه الجنيه وهو مطمئن، واستمرت هذه الحال، واستمر «س» في الارتقاء الاجتماعي الثقافي الذهني إلى أن بلغ سن الرشد، فتولى أعماله بلا خوف، وعرف أعظم حافز على الذكاء وهو الطموح الذي يبعث على الاستطلاع.

حبسة البيت أوشكت أن تلغي عقله، وقد ألغته إلى حد كبير نحو عشر سنوات، ولكن خروجه من البيت إلى هذا الفضاء الواسع، إلى المجتمع أعاد إليه عقله.

ثم انظر في حال «ع»:

هو شاب في الخامسة والعشرين يمارس الإجرام الخفي عن مبدأ، لما تحدثت إليه سألته عن أحلامه في اليقظة، أي تلك الخواطر السائبة التي تخطر لنا بلا ضابط ونحن أيقاظ كأننا نيام، كما يحدث عندما نستريح وننسطح مثلاً عقب الغداء في السرير.

ولم أدهش عند قوله: إنه يفكر في إحراق القاهرة.

وسألته: أي خاطر آخر يمر بذهنك؟ ولم أدهش عند قوله: إنه يشتهي أن يرتكب اتصالاً جنسياً شاذاً مع سيدة معينة، وكانت هذه السيدة تمثل في ذهنه صورة المرأة الشريفة.

إنه يكره الشرف، ولا يطبق رؤية رجل شريف أو امرأة شريفة، وذلك لسبب بسيط وهو أنه هو نفسه غير شريف.

فقد حدث وهو دون الثانية عشرة من عمره، أن فسق به عمه، واستمر يفسق به نحو عام.

ولذلك هو لا يطبق أن يسمع عن رجل شريف أو امرأة شريفة، ويود لو يشتعل حريق في القاهرة يموت به هذا المجتمع الذي حرّمه الشرف منذ صباه.

وهو عندما يجد رجلاً يكره التدخين يعمد إلى سبّه، ويعد امتناعه تكبراً، وإذا وجد رجلاً يتحفظ في لغته ويفرض الاندماج في حديث استهتاري يعمد إليه في كراهة يحاول التصغير من شأنه.

إنه يحس أنه سافل، وأن المجتمع مسئول عن سفالته، وأنه يجب كي يتساوى بسائر الناس أن يجعلهم سفلة مثله، لهم مثل هذا الاختبار السيئ الذي أوقعه به عمه حين كان يفسق به وهو دون الثانية عشرة، وهو ضائق بفضيحته التي يحسّها في نخاع عظامه، وهذا الضيق يثير غضبه فيجب أن يرتكب في الناس ما ارتكبه فيه عمه، وقد حقق كثيراً من ذلك، ففسق بالصبيان، بل فسق بالبغايا شاذاً، ولكنه لم يرتح إلى هذا الانتقام، فالتجأ إلى الخمر لتهدئة نفسه، ولكنه كان وقت سُكره يعربد ويعتدي، فإذا أفاق عاد إليه الكرب والضيق.

وكان يعمل ويكسب، وكان كسبه معتدلاً، ولكنه كان ينفقه على الخمر والمخدرات، ولم يكن يجالس المهذبين المتمدنين؛ لأنه وجد بالاختبار أنه سريع الشجار معهم، فصار يختار من هم دونه، يأتنس بهم ويعطف عليهم، ويتحدث أحاديث بذيئة معهم. وكان يضيق بعمله؛ ولذلك تنقل في نحو عشر وظائف في أقل من سبع سنوات. عندما رأيته وسمعت أحاديثه المتكررة شرعت أؤنسه وأشجعه، وأحاول تغيير فوضاه إلى نظام، وأرسم برنامجاً نظيفاً جديداً لحياته.

قلت له: أنت تكره حياتك الماضية وتلعن عمك الذي ارتكب فيك هذه الجريمة، وأنت ضائق مكروب متوتر بهذه الذكرى، وهذا برهان على شرفك؛ إذ لو لم تكن شريفاً لما عبأت بما حدث لك أيام صباك، أنت ترى رؤيا الرجل العظيم الذي كان يمكن أن تكونه أنت، ثم تذكر تاريخك الماضي ففكره نفسك وتكره المجتمع، وتتأثر منه بارتكاب جرائم الفسق، وأنا أحترم غضبك، ولكني لا أجد أنك تحاول معالجة نفسك، يجب أن تولد مرة أخرى. كلنا نتطور، ومعنى التطور أن نتغير، بحيث نزيد التلاؤم بيننا وبين مجتمعنا، وأعني مجتمعنا الحسن، وهناك أوقات يزيد فيها التطور حتى يشبه الثورة، وكأننا نولد مرة أخرى.

اعتبر السكير الذي مضت عليه عشرون سنة وهو يسكر ويتلف صحته وماله، فإنه يفيق ذات صباح، فإذا به شخص آخر لا يطيق رؤية الخمر، لقد ولد مرة أخرى، ويحدث هذا الانقلاب بشكل ثوري، أي إننا لا نتردد إليه وإنما ننبؤ. وأنت الآن على وشك الوثوب؛ لأنك وأنت تمارس الجريمة عن عمد بروح الانتقام لتاريخك الماضي إنما تحتضن أملاً مضيئاً ترى فيه نفسك رجلاً شريفاً، ولكن لن تكون هذا الرجل الشريف إلا إذا وضعت لنفسك برنامجاً جديداً لتحقيق هذا الشرف. ما هو الذي يجعلنا شرفاء في الدنيا؟

أن نهوى الأشياء العظيمة، نحب الأشعار ونقرأها، بل نؤلفها إذا استطعنا، ونحب الموسيقى، ونصادق الأصدقاء الأشراف، ونقتني الكتب والتحف، ونقرأ تاريخ الإنسان، ونخدم الناس بعمل منتج، وننتج أكثر مما نستهلك، ونسافر كل سنة إلى الشواطئ، ونبنى بيتاً يقوم على الحب بيننا وبين الزوجة، ونشتغل بالسياسة والاقتصاد، ونسأل لماذا يكون في الدنيا فقر واستعمار، ونكافح الظلم عند المستبدين والظلام عند الرجعيين، ونجعل لحياتنا دلالة، دلالة وليس معنى فقط، يجب أن تكون رجلاً يدل.

تعمد الارتقاء كل يوم بترك عادة قبيحة واتخاذ عادة حسنة، بعملٍ بارٍ بدلاً من عملٍ نجس، لا تتعمد نسيان ما حدث لك، وإنما قم بأعمال إيجابية تجعلك تحسُّ الشرف في

أحاديث إلى الشباب

نفسك، والدلالة لشخصك في مجتمعك، وعندئذ تنسى — دون تعمد — ما حدث في صباحك،
ضع لنفسك برنامجًا لهذا العام أو لهذا الشهر، بحيث تحاسب نفسك في آخر المدة على ما
كسبت منه، ثم جدّد برامجك واهدف إلى السموّ.

ادرس الاشتراكية وافهم غايتها في الإصلاح، أي في إلغاء الفقر والجهل والمرض، وكن
بطلاً من أبطالها، لك هدف إنساني عظيم، والهدف الإنساني العظيم يجعلك رجلاً عظيماً.

شُفي «ع» وصار يزورني في فترات، يسأل عن حلّ لبعض المصاعب الصغيرة، وسألته
بدوري: ما هو الذي أثّر فيك أكبر الأثر من أحاديثي معك؟ فكان جوابه قولي له: إنه يجب
أن يولد من جديد، ميلادًا جديدًا.

الجرائم والمجرمون

هناك قصة خيالية لأحد الأدباء الإنجليز، يتحدث فيها عن شعب ناءٍ يعيش على أصول وقواعد في الأخلاق تختلف عما نحن عليه، وكان بعض هذا الاختلاف أن قضاة هذا الشعب كانوا يحكمون على المريض بالسجن عقوبة له على مرضه، في حين أن المجرم لا يعاقب، وإنما يوضع في مستشفى للعلاج.

والفكرة لأول وهلة تدهشنا، ولكن قليلاً من التأمل يُزيل هذه الدهشة، فإن المسؤولية المزعومة عند المجرم، ثم الإرادة التي ينبني عليها عقابنا له على ارتكابه الجريمة، كلتاهما تعدُّ وهمية في نظر السيكلوجيين، فهو هنا مثل المريض، ولكن إذا قسنا العقوبة على قدر النتيجة، فإن القياس الصحيح يميل بنا إلى معاقبة المريض بأشد وأقسى مما نعاقب المجرم؛ ذلك أن المجرم قد يقتل رجلاً واحداً، ولكن المريض الذي يهمل في اعتزال الناس لمنع عدواه لهم يقتل عشرة رجال أو مائة رجل بالعدوى.

ولكننا نهذر حين نقدر العقوبة بمقدار النتيجة للمرض أو الجريمة؛ لأن المجرم والمريض سواء في أنهما غير مسئولين، وعندئذٍ يجب أن نعالجهما بالدواء بدلاً من أن نعاقبهما بالحبس.

والجريمة مثل المرض نتيجة محتومة لنظام المجتمع الذي نعيش فيه، وأعظم ما يؤدي إلى كثرة الجرائم هو الفقر، وهو نفسه أيضاً أعظم ما يؤدي إلى مرض. وكل سنة يشنق في مصر نحو مائة رجل، كلهم فقراء، وليس بينهم غني واحد، وكل سنة يحكم على مئات بالسجن المؤبد أو المؤقت وكلهم فقراء ليس بينهم غني واحد إلا فيما ندر، أليس هذا برهاناً على أن الفقر سبب الجريمة؟

والشعوب التي لا ترتكب فيها الجرائم البشعة التي تؤدي إلى الإعدام أو السجن المؤبد هي الشعوب التي يعمُّ فيها التكافل الاجتماعي، مثل سويسرا أو هولندا أو السويد أو دنمركا. قلت: «التكافل الاجتماعي.» ولم أقل: «الغنى؛» إذ إن هذه الكلمة الأخيرة نسبية في معناها؛ لأن الدخل الذي يجعل صاحبه غنيًّا في القاهرة يعد صغيرًا في نيويورك، ولكن التكافل الاجتماعي يمنع الفقر، وهذا كل شيء في منع الجريمة.

وفي بلادنا تكثر الجريمة في الريف وتبشع؛ وذلك لأن الريف يحوي الثراء والفقر الفاحش، ونجد لهذا السبب جرائم الاغتيل لأتفه الأسباب في نظرنا، ولكن ما نحسبه سببًا تافهًا هو طفاوة السطح للأحقاد العميقة التي خلفتها حياة الفقر والحاجة في نفس المجرم. ومكافحة الإجرام في مثل بلادنا يجب أن تنهض على مكافحة الفقر لهذا السبب، وإذا استطعنا أن نوجد بعض القوانين التي تجمل معاني التكافل الاجتماعي فإننا بلا شك نمنع الجريمة، أو بالأحرى نمنع معظم الجرائم.

وأساس التكافل الاجتماعي هو أن نكفل العمل الكاسب المنتج لجميع الرجال والنساء من سنِّ العشرين إلى سنِّ السبعين، وأن نمنحهم التعويضات عن التبطل والمرض، وأن نيسر لهم صيانة صحتهم في المسكن النظيف والشارع النظيف.

أما بعد الفقر الذي أعزّو إليه ٩٥ في المائة من الجرائم في بلادنا، فإني أحتاج إلى ذكر أسباب أخرى تؤدي إلى الجريمة، أو تزيد من فداحة الجرائم التي يحدثها الفقر.

وأول ذلك العائلة المفككة بالطلاق وتعدد الزوجات، فإن كليهما يعمم الفوضى ويبعث الأحقاد بين الأزواج والأبناء، وقد يحدث العُقد السيكولوجية التي تؤدي إلى الإجرام.

والثاني هو المجتمع الانفصالي الذي يفصل بين الشبان والفتيات، ويحدث التوترات والشذوذات الجنسية البشعة، وليس من الضروري أن تؤدي التوترات الجنسية إلى جرائم جنسية؛ إذ هي تؤثر في السلوك العام للشباب، وتجعله يقع في انحرافات إجرامية قد لا يكون لها علاقة مباشرة بالجنس؛ إذ هي تُحدث كربًا وضيقًا وإحساسًا بالحدق والغضب يجعل السلوك غير عادي في الشئون العادية، فتحدث الجريمة أو الرذيلة، والإصرار على منع الخمر هو في صميمه إصرار على تعويد الشبان اتخاذ المخدرات، ولا يقف انتشار المخدرات غير الترخيص ببيع الخمر، وهذا على الأقل هو ما نفهمه من تجارب الشعوب الأخرى، فإن اللبنانيين والإسرائيليين والسوريين يزرعون الحشيش ولكنهم لا يدخنونه؛ لأنهم يقنعون بشرب الخمر الرخيصة، ثم هم يزرعون الحشيش لنا.

وإذا لم تبعث المخدرات متناوليتها على الإجرام فإنها تحيلهم إلى حيوانات لا تحسُّ
المسؤوليات الاجتماعية والعائلية، كما أنها تعمم البلاهة في كثير منهم بحيث يعجزون عن
العمل الكاسب المنتظم، وتناول الخمر في اعتدال لا يحدث شيئاً من هذه الرذائل.
وجميع الشعوب المتمدنة القوية تتناول الخمر بلا حرج، والصحة العامة فيها
حسنة، ومتوسط الأعمار يصل إلى ٧٢ سنة، في حين لا يصل هذا المتوسط في مصر إلى
٣٠ سنة.

وهناك في أقصى الصعيد عادات وتقاليد تحثُّ على الإجرام منها هذه الكلمات السفاحة
التي يجب أن تلغى من لغتنا وهي: العرض، الدم، الثأر، الانتقام. فإن هذه الكلمات مسئولة
عن قتل خمسين أو مائة مصري كل عام، ومرجعها أو أساسها هو هذا النظر الاقتتائي
للمرأة التي تُعدُّ في بعض البيئات الصعيدية سلعة وليست إنساناً حراً يتصرف بحياته كما
يشاء، ولا بدَّ من تغيير هذه النظرة.

كيف نعالج الإجرام؟

قبل كل شيء وبعد كل شيء وفي كل وقت يجب ألا ننسى أن الفقر هو العلة الاجتماعية
الأولى التي تؤدي مباشرة أو مداورة إلى الإجرام؛ ولهذا تكثر الجرائم في الريف؛ لأنه البيئة
الأولى للفقر؛ ولهذا يجب أن يكون هم المصلحين واهتمامهم في مصر زيادة الدخل لعامة
الشعب.

والفقر كما قلْتُ هو علة ٩٥ في المائة من الجرائم، أما الخمسة في المائة الباقية ففي
ظني أنها تعود في كثير من ظروفها إلى الفقر أيضاً؛ لأن الرجل الذي يطلق زوجته، أو
الزوجة التي تسب زوجها وتهينه وتستفزّه إلى ضربها أو قتلها، والصبي الذي يفسد كي
يجد قرشاً يشتري به الحلوى، والفتاة التي يستميلها مخدومها في المنزل حتى يفسق بها،
كل هذا يعود مباشرة أو مداورة إلى الفقر.

ومهما كررنا القول عن الفقر، وأنه أساس الرذائل والجرائم والأمراض، فإننا لن
نعطيه حقه في كل هذه المساوئ، فالعلاج الأول للجريمة هو إلغاء الفقر، وتبقى بعد ذلك
علاجات أخرى:

أولها: أن توجد العائلة المكيّنة في مصر، أي العائلة التي لا تتزعزع بطلاق أو ضرر،
فإن هنا ضماناً للاستقرار والنشأة الطيبة للأبناء، ولا يمكن بالطبع أن نستغني عن الطلاق،
ولكن يجب ألا نسمح به إلا في أضيق الحدود.

ثم يجب أن نلغي المخدرات؛ الحشيش والأفيون والمورفين والكوكئين والهيريون بتيسير صنع الخمر في بلادنا وبيعها بدلاً منها.

وأخيراً يجب أن نوجد المجتمع المختلط، فنعلّم الشبان والفتيات معاً في الجامعات، كما يجب أن نرفع من شأن المرأة باستخدامها في جميع أعمال الرجال، حتى يحس هؤلاء أن لها كرامة مثلهم، ولا يقتلوها أو يضربوها لأتفه الأسباب.

وفي كل هذا الذي ذكرت لا أنسى المركبات والعقد السيكلوجية التي قد تحدث الإجرام، فإن الوالد القاسي أو زوجة الأب التي تسيء إلى أبناء زوجها أو المعلم الشرس أو الشوهة التي تجعل الصبي خجولاً لا يحسّ نقصه أمام تغيير زملائه له، أو العار في العائلة، أو الفسق بالصبي، كل هذا يحدث عُقدًا في نفس الشاب تحمله على كراهة المجتمع أو الحقد عليه، ثم التفريغ أحياناً عن هذا الحقد بالإجرام.

ولسنا ننسى هنا مع ذلك أن مركب النقص قد يحمل صاحبه على التّمهّر للتعويض، وقد يتيح له النجاح، ولكن هذا قليل؛ لأن الأكثر أنه يبعثه على الإجرام.

وأخيراً يجب أن نذكر الرحمة على الدوام، فإننا كلنا مجرمون، وبرهان هذا أننا كثيراً ما تخيلنا إيقاع الأذى، بل أحياناً حلمنا بالقتل لأعدائنا، أي إننا ارتكبنا الجريمة في الخيال، ثم غرامنا بقصص الإجرام السينمائية أو بقراءة هذه القصص برهان على أن الإجرام ليس بعيداً عن نفوسنا؛ إذ إننا لو كنّا ننفر ونشمئز من الجريمة لما أحببنا رؤيتها على الشاشة السينمائية، ولما قرأنا ما تكتبه الصحف عنها في نهم وحماسة، ولما تخيلنا أنفسنا أبطالاً في العدوان وقت الراحة حين نستسلم لأحلام اليقظة.

وكل هذا يجب أن يكون عاملاً من عوامل المطالبة بالرحمة للمجرمين.

الطلبة الذين يقتلون ويسرقون

استبشع الجمهور ما ذكرته الصحف عن الجرائم التي ارتكبتها شبّان من الطلبة، وهي جرائم يجب أن تنبهنا إلى العوامل العديدة التي تبعث الأفكار السوداء في عقول أبنائنا، ثم يجب ألا ننسى أنه إذا كان هؤلاء الطلبة قد ارتكبوا هذه الجرائم العاتية وقبض عليهم، فإن هناك من الشبان من ارتكب ما هو دون هذه الجرائم، أو فكّر فيها كما لو كانت حلماً وأمنية، ولعله لم يرتكبها إلا للخوف فقط من العقوبة، وليس لأن نفسه تنفر من الجريمة. وعندما نتحدث عن الجريمة يجب أن نذكر أن المجرم إنما يرتكب جريمته؛ لأنه لا يطيق الوسط الذي يعيش فيه، وليس لأنه قد ورث النزعة الإجرامية.

ليس هناك وراثة في الإجرام، وإنما هناك عوامل سيئة قد أنبتتها الوسط الاجتماعي، وقد كان يقال: إن العقل السليم في الجسم السليم، ومن الحسن أن نعكس هذه العبارات وأن نقول: إن الجسم السليم في العقل السليم، فإن هناك عشرات من أمراض الجسم تعود إلى العادات السيئة في العيش، وهي عادات ما كان ليقبلها ويتعودها صاحبها لو كان عقله سليماً.

ولكن هناك حكمة أخرى يجب ألا ننساها هي أن النفس السليمة في الوسط السليم. جميع جرائمنا تعود إلى وسط سيئ، يحدث التوترات التي يختل منها العقل وتحتد منها العواطف، فتنفجر الجريمة للعجز عن الضبط والتعقل، وهذا يقع منذ الطفولة إلى الشيخوخة.

اعتبر الصبي الذي يسمع نداء الحلويات والمثلجات في الشارع فيطلب من أمه قرشاً ليشتري شيئاً منها فترفض، فيغتاظ ويصفع شقيقه للتفريغ عن توتره. واعتبر الصبي يخرج من البيت قصد الذهاب إلى المدرسة فلا يذهب إليها، وإنما يقضي وقته وهو يتسكع ويلعب في الشوارع إلى ميعاد الغداء، حين يعود إلى البيت، وكأنه

لم يرتكب شيئاً، وإنما فعل ذلك؛ لأن المدرسة بنظامها الحاضر ليست محبوبة، ولأن المعلمين لا يغرونه بالدرس أو بطريقة التدريس.

أو اعتبر الصبي الذي لا يجد حباً من أبويه، فهما يهملانه في البيت؛ ولذلك لا يطيق البقاء فيه، وإذا بقي فيه، فإن نشاطه يتخذ أسلوباً لا يرضي أبويه. هذه جرائم صبيان بل أطفال تعود إلى أن نفس الصبي مريضة غير سوية؛ لأن وسطه العائلي أو المدرسي غير سليم.

وعندما يبلغ الصبي سن الشباب يجد أن له عائلة أخرى، عائلة كبرى هي المجتمع. وفي المجتمع السليم أي الوسط السليم يجب أن يلقي الشاب تلك العوامل التي تبعثه على السلوك السوي، فليسأل كلُّ منا: هل مجتمعنا سليم يثمر النفوس السليمة؟ وهل لو كان سليماً كان هؤلاء الطلبة الذين قتلوا وسرقوا وفسقوا يجدون المرتع لجرائمهم؟ قبل نحو شهر مات صديقي الأستاذ المصرفي، وكان قد أنفق بضع سنوات من عمره كمرشد اجتماعي يصلح ويوجه صبيان الإصلاحيات، وسألته ذات مرة سؤالاً علنياً أمام جمع من الشبان: هل أولئك الصبيان حين يخرجون من الإصلاحيات يسلكون السلوك الاجتماعي الحسن ويعيشون العيشة الطيبة؟

فكان جوابه: لا، كلهم يرتكبون الجرائم ويدخلون السجون. يدخلون السجون بعد أن أمضوا سنوات فيما نسميه «إصلاحيات». قلت له: ولماذا؟

فقال: لأن نظام الإصلاحيات هو نظام السجون لا يختلف، والذين يشرفون عليهم في نظامهم وإطعامهم واستخدامهم ليسوا من المربين والمربيات، وإنما هم من رجال البوليس. وذكرت عندئذٍ ما سبق أن قاله لي الأستاذ عبد الحميد عبد الحق، فقد كان وزيراً للشئون الاجتماعية، حين قصد إلى إصلاحية «الرجال» في القناطر، ولشد ما دهش عندما وجد رجلاً قد ربط إلى ساقية الإصلاحية، فهو يجر ويدور حول محور الساقية. وسأل: لماذا تفعلون هذا بالرجل؟ فكان الجواب: «ما عندناش بقرة.» وبكلمة أخرى قد أكلنا هذا الإنسان إلى حيوان، فكيف ننتظر منه بعد أن يخرج من الإصلاحية أن يعود إنساناً؟!

وكذلك «صبيان الإصلاحية» الذين عوملوا المعاملة العسكرية، كيف ننتظر منهم أن يكونوا اجتماعيين سويين حين يخرجون منها؟

إن لكل منا أسلوباً في العيش يتفق ووسطه ومجتمعه، وهذا الأسلوب هو استجاباتنا ورجوعنا إلى الحب والبغض، ومعاني الشرف ومطامع الكسب، وهو يجب أن يحثنا عما

يسعدنا ويريحنا أو يزيدنا كرامة، والإصلاحات والسجون لا تهين هذا الوسط أو هذا المجتمع، بل تبعث في المجرمين الصغار والكبار بواث الحقد وإحساس الضعة ونسيان الفضائل نسياناً يكاد يكون تاماً.

وهؤلاء الطلبة الذين سقطوا سقوطهم العظيم في الجريمة يجب أن نلتمس أسباب سقوطهم في مجتمعهم؛ إذ ليس شك أن هناك عوامل قررت لهم أسلوب العيش على هذه الطريقة الإجرامية، وأنهم لو كانوا قد تعلموا أسلوباً آخر لسلكوا سلوكاً آخر.

هل نشأ هؤلاء الشبان المجرمون في حضن عائلة حسنة وجدوا فيها الحب من الأبوين والإخوة والمعاملة الحسنة التي لا تنزع إلى الاضطهاد أو إلى التدليل؟ هل وجدوا المدرسة التي كانت تغريهم بالدرس بدلاً من التهديد بالعقوبة؟

هل وجدوا ما يملأ فراغهم من العمل الكاسب أو الكتاب النافع، أو الهواية السليمة أو الاختلاط الجنسي، أو سائر ما يرفه عنهم ألامهم من تفاهة حياتهم؟

أظن أنهم لم يجدوا ذلك؛ إذ لو كانوا قد وجدوه أو وجدوا بعضاً منه لامتلت حياتهم بما يشغلهم من العمل السوي الصالح بدلاً من هذا الشذوذ الإجرامي.

إننا نعالج الجريمة بالمشنقة والسجن والحبس، ولكن العلاج الحقيقي هو أن نوجد المجتمع الصالح الذي يثمر المواطن الصالح، فلا ينحرف إلى الإجرام.

واقترحاتي الإيجابية هي ما يلي:

أن يعنى الآباء بحب الأبناء أيام الطفولة ثم الصبا، فإن العادات التي ترسخ في هذه السنين قلما تتغير في المستقبل، ومعنى الحب هنا ألا يكون هناك اضطهاد أو تدليل لهم، وإنما المعاملة النزيهة فقط.

أن نعلم الصبيان كيف يصادقون زملاءهم، ويلعبون وينتمون إلى الأندية التي تنشأ على نظام الاحترام لشخصياتهم، والتي تدريبهم على الألعاب الرياضية.

وأن نعم التعليم المختلط، فإن الاختلاط الجنسي يرفه عنهم شباناً وفتيات، ويحملهم على صداقات تربيههم وترسم لهم أهدافاً من الشرف والجد، وهم لا يجدون شيئاً من هذه الصداقات الآن؛ لأننا نحرمها.

وأن نيسر لهم الدروس، ونطالب المعلمين بأن يكونوا شخصيات محبة غير مكروهة، فإن فشل التلميذ في المدرسة يعدُّ من أعظم الصدمات النفسية التي تحمله على رذائل لا تحصى، بل إن التجاهل إلى اللذة الانفرادية الجنسية كثيراً ما يكون نتيجة لفشله في المدرسة؛ إذ هي ترفيه وقتي يرفع نفسه ويرحبه بعض الوقت من الكرب الذي يعانيه بسبب الفشل،

ويجب أن نشجع الشَّبَّانَ والفتيان على اتخاذ الهوايات النافعة التي تحمل في طياتها عوامل التربية الذاتية والارتقاء المطرد.

ويجب ألا نحرّمهم مصروفهم من النقود مع الاعتدال، فلا تقتير ولا تبذير.
وكذلك يجب ألا نحرّمهم من غشيان الدور السينمائية، ولكن مع النصح بتجنب الأفلام الإجرامية التي ترد إلينا من الأقطار الأجنبية والتي تصف المجرم بالبطولة. وأخيرًا وعندي أن هذا كبير القيمة جدًّا، يجب أن نعوّدهم قراءة الكتب النافعة التي يحسُّون منها الزيادة في الارتقاء الذهني.

فإنَّ هذا الارتقاء يوجههم ويكسبهم إحساس القصد في الحياة، فالشباب الذي يشغف بالقراءة منذ السابعة عشرة مثلاً تتسع آفاقه في التفكير الإيجابي، فهو يريد أن يكون كذا وكذا، وهو يفكر في الدنيا وفي شخصه ومجتمعه، وهو لهذا الشغف نفسه يكره قتل الوقت في الأحاديث التافهة وألعاب الحظ، كما ينفر من الأصدقاء الهازلين، بل هو يتجنب العادات السيئة، كالتدخين والشراب ونحوهما.

وتبعًا لذلك يتجنب التفكير الإجرامي الهدّام الذي يهدم به نفسه قبل أن يهدم غيره. والمجتمع السليم هو الذي يطهر لغته من الكلمات السفاحية، مثل الانتقام، الثأر، الشماتة، التفوق، ويستبدل بها كلمات التعاون والسلام والرحمة، ويجب أن تكون له كلماته التي تصح أن تكون شعارات، يرتقي بها الشبان ويؤلفون برامج جديدة ينهضون بها ويكبرون.

هذا عندي هو المجتمع السليم الذي تحتاج إليه النفس السليمة السوية التي لا تشدُّ ولا ترتكب الجريمة.

نحن شعراء في الصباح

عندما نقرأ الأبيات التي ينسجها خيال الشاعر العظيم نحسُّ السعادة تغمرنا للمعاني العميقة التي يستنبطها في نفوسنا، وللإلهام الإنساني الذي يبعثه في عقولنا.

وتكاد الرغبة في تأليف الأشعار تكون عامة بين جميع الشبان، حين يشرعون في تحسس الفنون والآداب، وقلَّ أن تجد مشتغلًا بالأدب أو الفن لم يحاول أكثر من مرة أن يؤلف الشعر، والأغلب أنه يمارس هذه المحاولات أيام الشباب الأولى حين يبدو كثير من الدنيا والكون أمامه جديدًا، وحين يشرع في تفسير عواطفه البازغة، فيسأل عن الحب والجمال والشجاعة والشرف.

والشباب الذكي يستبقي هذه الإحساسات سائر عمره، فإذا استطاع أن يكون مؤلفًا ناظرًا فذاك، وإن لم يستطع فهو يقنع بالقراءة وينشد الأشعار العظيمة أينما وجدها، يتأمل معانيها ويتلمظ بكلماتها، وهو سعيد بكل ذلك، يحاول أن ينقل معاني الشعر إلى معاني حياته كي يسمو ويتقدس.

وكلنا نستطيع أن نكون شعراء.

ذلك أن للشعر أوقاتًا وظروفًا تنبهر في نفوسنا، فإن كل شاب مثلاً شاعر وقت غرامه، وكذلك الجندي المكافح وقت المعركة، بل كذلك الأم وهي تناغي طفلها الرضيع، وكلنا شعراء أمام جبل شامخ، أو شفق ملتهب، أو صورة فنية، أو نحو ذلك.

وكلنا شعراء في الصباح حين نبكر في الاستيقاظ ونستقبل النسيم الرخي الذي يحمل أصواتًا هادئة بعيدة عن وعينا المدني، تكاد تكون في هدوئها صامتة مضمرة، في حركة الهواء وحفيف الأوراق ورقصات الأعشاب.

ويجب كي نجيد الإحساس بالشعر، ألا نتناول فطورنا إلا بعد أن نخرج إلى الحقول، أو حتى إلى أقرب حديقة مهما صغرت مساحتها وقلَّت أعشابها، فإن هذا الاتصال بالطبيعة

يبعث في قلوبنا طائفة من الإحساسات النبيلة ويعيد إلينا ما ننساه كثيرًا، وهو أن لنا أمة عامة تشملنا جميعًا هي الطبيعة.

نحن كلنا أبناء الطبيعة ويجب أن نتصل بها كل صباح نتشمم العبير من أعشابها ونتغزل بأحيائها ونذوب في كيانها، ويجب ألا نطلب الجمال فقط في الطبيعة، بل يجب ألا نطلبه بتاتًا في الصباح؛ لأن الإحساسات التي ننطوي عليها وقتئذٍ هي إحساسات البنية للأوممة، فكما أننا نحب أمة التي نشأنا على صدرها ورضعنا من ثديها؛ لأنها أمة فقط، وكما أننا لا ننشد فيها الجمال، كذلك يجب أن يكون شأننا مع الطبيعة، نحبا بقوة العاطفة التي يكنها الأبناء للأمهات لا أكثر.

هذه العاطفة الحنونة هي التي تجعلنا نجد في طين الحقل ودبيب النمل ورائحة السباخ وأوراق الخريف الصفراء، نجد فيها جميعها إحساسًا دينيًا يكاد يحملنا على الصلاة.

ومع ذلك ليس هناك شك في أن للطبيعة جمالًا، بل جلالًا تراه في الجبل الشامخ أو في النيل العظيم، أو في الشمس عند الشروق أو الغروب، عندما تلهب الشمس السحب كأنها تشعل فيها حريقًا، ولكن تقديرنا للأمة يحتاج إلى كل هذه المظاهر الفاخرة؛ لأن الصلة الحميمة التي تربطنا بها تغنيها عن هذه البهجة، بحيث نحس الحب والحنان لها وهي في ابتذالها عارية من هذه الأبهة، والأبناء لا يطالبون أمهاتهم بالتأنق في الملابس والتأنق في الأزياء.

أجل، ليست الطبيعة للجمال، وإنما هي للأوممة.

يجب أن نخرج في الصباح كي نلتقي بأمة، حيث نختلي بها ونناجيهما، وإنه للقاء رحيب سخي عند جميع الذين مارسوه، فإن ما غرسته في نفوسنا ملابسات الحضارة من غيرة أو بغض أو حسد أو طمع، كل هذا يذوب وتأخذ مكانه عواطف الحب والتسامح، حتى إننا لنجد لذة حنونًا في الحكمة القائلة: «أحبوا أعداءكم».

وهي حكمة يشق علينا العمل بها ونحن في مجتمعنا الاقتنائي الحاضر؛ إذ هو يحملنا على المباراة، ويغرس فينا منذ طفولتنا الرغبة في التفوق والسبق، وينأى بنا عن معاني الحب والتسامح، فضلًا عن الحب للأعداء.

ومن الحسن أن ننسى ساعة كل يوم هذه الاعتبارات المدنية، وأن نعود بدائيين نقدر القيم البدائية في تأمل الشجرة والزهرة، وفي لذة النفحة من النسيم، تحيينا وكأنها تقبل وجوهنا، وفي الصمت يحيط بنا وكأنه يهمس إلينا أسرارًا عن حقيقة الوجود.

نحن شعراء في الصباح

بل ونحن في هذه الحال منفردين في خلوتنا إلى أنفسنا بعيدين عن ضجيج المدينة نستطيع من وقت لآخر أن نتأمل ماضيها ومستقبلنا، وقد نهتدي، والأغلب أننا نهتدي، إلى بصيرة جديدة في حياتنا، فقد نكون مندفعين في خطة أو سلوك نحو هدف زائف فاسد أو بعيد مجهود، وما دمنا في وسط المدينة وملابساتها وقيمها فإننا ننساق في غير وعي وبلا تفكير، ولكن خلوة الصباح مع الأم الكبرى جديدة بأن تجعلنا نقف ونقدر ونغير ونفلسف، وقد نأخذ عندئذٍ بقيم جديدة تؤدي إلى السعادة، أو إلى ما هو أشرف من السعادة؛ إلى الإنسانية.

ولكن جميعًا شعراء في الصباح.

دنيا المخاوف التي نعيش فيها

كثيرون منّا يمضون حياتهم، منذ المهد إلى اللحد، وهم في خوف، ونحن نغرس هذا الخوف في نفوسهم منذ الطفولة، فإن قسوة الأب لن تنسى حتى حين يبلغ الطفل سن الشباب، ذلك أن صورته القاسية حين كان يكثُر ويزعق ويضرب تبقى ماثلة في صورة عاطفية لجميع الرجال، كأن كل رجل يمثل الأب؛ ولذلك كثيرًا ما نجد شابًا يشكو الخجل عند مقابلة الناس، وهو يتجنبهم ويفرّ من لقاءهم، وليس هذا الخجل سوى الذكرى غير الواعية لما حدث أيام الطفولة، حين كان هذا الشاب يخشى لقاء أبيه وغضبه وتهديده له، أي للطفل، أو لأمه أو لأحد أشقائه.

الخجل هو أحد الرواسب الدفينة في الشاب منذ طفولته القاسية، ولكن الخوف يبدو في مظاهر أخرى حين يكون مرجعه إلى أيام الطفولة، كالخوف من الظلام، فإننا كلنا تقريبًا عانينا ذلك؛ لما غُرس في قلوبنا من احتواء الظلام للعفاريات، وحين تجد شابًا يتحدث بصوت منخفض أو حين يرتبك ويتلعثم ويتردد، ثِقْ أن كل هذه الصفات يعود أكثرها إلى أنه قد عومل بالتخويف أيام طفولته.

ولكن الخوف لا يقتصر كله من حيث الأسباب على أيام الطفولة، ذلك أننا نعيش في دنيا تحفل بالمخاوف، فإننا نخاف الإفلاس والفقر والمرض وموت الأبناء أو خيبتهم، بل نخاف الموت الذي تجهله جميع الحيوانات إلا الإنسان، ولكن مع أن هذه المخاوف لا تعود إلى أيام الطفولة، فإن الطفل الذي ينشأ بلا تخويف ولم يرَ قسوة من أحد أبويه يمكنه أن يتحمل هذه المخاوف أكثر من ذلك الطفل الآخر الذي عومل بالتخويف في طفولته، وذلك لسبب بسيط هو أنه عندما يصادفنا حادث يخيفنا ونحن كبار تثار في نفوسنا تلك العواطف القديمة التي ظننا أننا نسيناها.

تذكر الأم التي مات ابنها كيف تبكي أحرَّ البكاء في مآتم، أو أخرى مات ابنها أيضًا وهي لا تعرف كيف تضبط نفسها عن الحزن العميق، هذا في حين أن سيدة أخرى لم يمت لها ابن، تستطيع أن تتحمل هذا الحادث وهي مطمئنة تكاد تكون متفرجة.

الخوف في الطفولة يبعث الخوف في الرجولة.

وعندما نكبر نلاقي مخاوف أخرى في المجتمع، فإن الفتاة حين تبلغ العشرين تتطلع إلى الزواج، فإذا بلغت الخامسة والعشرين دون زواج عمَّها قلق يزيد سنة بعد أخرى، وتحدث لها توترات، بل أمراضًا نفسية وجسمية، وخاصة إذا لم تكن تحترف حرفة تكسب منها، فتحفظ بها كرامتها وتحسُّ الاطمئنان الاقتصادي منها.

بل كذلك يحدث للزوجة إذا تزوجت ولم تعقب بعد عشر سنوات مثلاً من الزواج، ولكن الخوف هنا ليس له تلك الخطورة التي تحسُّها الفتاة حين تظنُّ أنها فشلت في الحصول على زواج.

ثم هناك الشاب الذي يعجز عن الحصول على عمل كاسب، أو الذي يخشى معاكسة الرئيس له وتهديده له بالفصل من وظيفته، أو الذي تكون طبيعة عمله مغامرة، كما في التجارة والبورصة؛ حيث تتقلب الأثمان والأسعار بلا ضابط.

وهناك علامات تدلُّ على الخوف حتى حين يظنُّ الشاب أو الفتاة أنهما غير خائفين، مثال ذلك الكابوس؛ فإنه خوف يتردد حين ننام وتذهب عنَّا قيود ضبط النفس الاجتماعية، وهو يتخذ أشكالاً طفلية وأساليب وحشية، ولكن له دلالة حيوية خاصة بمجتمعنا، وبالهجوم التي نتحملها في التجارة أو الوظيفة أو المرض أو نحو ذلك، والرجل المطمئن من هذه المخاوف لا يحدث له الكابوس.

وليست الهوموم سوى مخاوف متردة نتحملها كما قلنا في يُسر أو ما يقارب اليسر، إذا كنَّا قد عوملنا بلا تخويف أيام الطفولة، ولكنها تفدح وتؤلُم إذا كنَّا قد عوملنا بالتخويف أيام طفولتنا.

وقد يجد أحدنا نفسه في اجتماع بين نظرائه الذين لا يجد فيهم من يفضلُه، ثم يطلب إليه أن يقف ويقول كلمة ترحيب أو شكر أو بيان لموضوع ما، فما هو أن يقف حتى تغمره رعدة الخوف، فيعجز عن نطق كلمة واحدة.

أليس هذا خوفًا آخر كان كامنًا في نفسه، ولكنه برز في هذا الموقف الذي طُوب فيه بمواجهة عدد كبير من الرجال؛ إذ هو قد تعودَ الخوف من لقاء الرجال منذ كان أبوه يقسو عليه في طفولته؟

وعندما يكون الخوف غامراً فإنه يؤدي بالخائف إلى تجنب المسؤوليات، بل إنه ليتجنب مسئولية الحياة نفسها، ويرسم برامجه على مستوى منخفض من العيش، بلا طموح يكون فيه شيء طفيف من المخاطرة، ولو أن هذه المخاطرة قد لا تزيد على واحد في المائة في المشروع المنتظر، وهو يبرر لنفسه هذه الحال الوضيعة بأنه قانع متواضع، والحقيقة أنه جبان خائف.

ولكن مع ذلك يجب ألا نقلل من شأن الأخطار المحدقة في الحضارة القائمة التي لا تكفل لنا العمل والكسب، ولا تكفل الضمانات التي نطمئن بها على أنفسنا أيام التعطل أو المرض، أو حين نموت ونترك أرملة وأيتاماً، فإن هذه كلها مخاوف حقيقية يجب أن يكون الإنسان حزيناً لا يحس إذا كان يقول: إنه لا يخشاها.

وأحياناً يتخذ الخوف في بعض الشبان سرعة تشبه الهرولة، كأنه من حيث لا يدري يريد أن يفر، والفرار علامة الخوف، فإننا نفرّ من ثور هائج أو حية سامة أو نار غير مضبوطة أو نحو ذلك، وتعود الهرولة أسلوب سلوكنا، وأحياناً تفسد العلاقات الزوجية بسبب هذه الهرولة التي يعود أساسها إلى الخوف.

وبعض الناس حين ترتبك أعمالهم أقل ارتباك يجدون وقت النوم زيادة على الكابوس أو بدلاً منه أنهم يهبون من النوم، فيستيقظون في انزعاج كأن حادثاً عظيماً قد وقع بهم، ومرجع هذا الخوف المفاجئ أنهم يكتمون مخاوفهم في النهار، فتفرج هذه المخاوف في الليل عند النوم.

والنوم يخفف أحياناً بالأحلام بعض مخاوفنا، بل هو قد يحلل لنا هذه المخاوف ويعالجها، هذا إذا كنّا لا نكتم تماماً ولا نقاطع هذه المخاوف كثيراً، بل نعالجها في النهار بالعقل والحكمة، وعندئذ يكون النوم حليفنا، فيخفف من وقع الصدمات، ويرسم لنا طرق التخلص منها، ولكن عندما نكتم المخاوف، وكثير منّا يفعل ذلك تهبّ علينا وتفرعنا وقت النوم، وكأنها تنبهنا إلى ما أهملنا من شؤون الحياة، ويجب لذلك أن نستجيب إلى هذا النداء، ونبحث في أعماق نفوسنا عما يخيفنا ونعالج حالنا بالعقل والحكمة.

وأحياناً أخرى نقع في الخمر أو المخدرات لفرط ما يرهقنا من مخاوف، والخمر هي أيسر المخدرات، وأثرها في تخفيف التوترات والمخاوف لا ينكر، ولكن مع وجوب الحرص على تجنب الإفراط أو الإدمان. وأخيراً هناك التحليل النفسي.

فإن المحلل قد ينتهي بنا إلى ثورة قديمة تعود إلى أيام الطفولة، وقد يجد أننا نطمح إلى أكثر مما تتحملة طاقتنا فيقول الكلمة الحكيمة؛ وهي أننا يجب أن نقنع بأقل مما

نطمع في تحقيقه، وقد يجد أننا نخاف من أوهام لا قيمة لها، بل أحياناً لا وجود لها إلا في ماضينا القريب أو البعيد، فيوضح لنا أن خطرهما قد زال. ثم هو قد يبني ما تحطم في نفوسنا فيرسم لنا طريقاً إلى النمو، بأن يهيئ لنا طموحاً جديداً في هذه الدنيا.

وأخيراً يجب ألا ننسى أن هناك أمراضاً تحدث في الجسم، مثل لغط القلب أو الإسهال أو زيادة الضغط في الدم، وقد يكون مرجعها جميعها إلى الخوف، وقد تفدح هذه الأمراض فتؤدي إلى الموت، كما يجب ألا ننسى أن كثيراً من الخائفين (والخائفات) يشوه الخوف وجوههم، فتكثر الخطوط والتجاعيد، ويشيخ الشاب والفتاة وهما بعد في سنّ الشباب. علينا أن نزن طاقتنا ونتعقل في المجتمع، ونطمع أو نقنع وفق ما تطالبنا به ظروف الحياة، أي علينا أن نكون حكماء.

مرض النفس يحدث مرض الجسم

كان موسى بن ميمون طبيباً فيلسوفاً، ولد في قرطبة بالأندلس وهاجر إلى مصر حيث مارس الطب أيام صلاح الدين وابنه الملك الأفضل، ومات بالقاهرة في ١٢٠٥ م. وقد ألف عنه «إسرائيل ولفنسون» كتاباً ترجم فيه حياته وشرح فلسفته، ونقل منه مقتبسات تدلُّ على اتجاهاته السيكلوجية؛ إذ كان موسى سيكلوجياً قبل أن تعرف كلمة السيكلوجية، فقد دعا الأطباء في عصره إلى أن يذكروا أحوال النفس وأثرها في أحوال الجسم، وأنا أنقل هنا بعض ما اقتبسه المؤلف، قال في رسالة موجهة إلى الملك الأفضل:

ومعلوم لدى مولانا، أدام الله أيامه، أن الانفعالات النفسانية لها تأثير عظيم في الجسم بين ظاهر للكل، فإن الإنسان القوي البنية الجهر الصوت الناضر الوجه إذا فاجأه خبر يحزنه حزناً عظيماً تغير لونه، وذهبت نضارة وجهه وانحنت قامته وانخفض نبضه وغارت عيناه وبرد سطح جسمه وقلَّتْ شهوته، وعلة هذا التأثير هو غور الحرارة الغريزية والدم داخل البدن، وبالعكس فإن الشخص الضعيف الجسم الحائل اللون الضعيف الصوت إذا اتصل به أمر يسره سروراً عظيماً قَوِيَ جسمه وارتفع صوته وأنار وجهه وأسُرعت حركاته وارتفع نبضه وسخن سطح جسمه، وسبب هذا هو حركة الحرارة الغريزية والدم نحو ظاهرة البدن، كذلك حالات المنهزم والظافر بينة؛ إذ يكاد المنهزم لا يبصر لقلة الروح الباصر وتبدده، أما الظافر فإنه يزيد نور بصره زيادة عظيمة حتى يخيل إليه أن النور قد زاد ونما؛ لهذا كان على الأطباء واجب هو العناية بالحركات النفسانية وتفقدتها في حالتها الصحة والمرض قبل كل شيء، ورغبة في أن يكون كل مريض وكل صحيح مسروراً منبسط النفس بعيداً عن الانفعالات الموجبة للانقباض،

على أن من يغلب عليه الهم لا يمكن الطبيب الماهر، من حيث هو طبيب فقط، أن يعالجه علاجًا ناجحًا، وإنما يعالجه مَنْ له إلمام بالفلسفة العملية والمواظ على الآداب الشرعية، فإن الفلاسفة كما وضعوا كتبًا في العلوم وضعوا كتبًا في إصلاح الأخلاق وتأديب النفس وطريق اكتسابها للفضائل؛ ولذلك لا تجد الانفعال شديدًا جدًا إلا عند أشخاص لا علم لهم بالأخلاق الفلسفية، كالصبيان والنساء والأغمار من الرجال، فإنهم لرخاوة أنفسهم يهلعون ويجزعون إذا مسهم الضر ونزلت بهم آفة من آفات الدنيا، وربما عظم المصاب فيموت الشخص لقلة أدب نفسه، وكذلك من نال منهم خيرًا عظيمًا يزداد عجه ويعظم ضحكه، وتشتد رعونته حتى لقد يموت بعضهم من شدة الفرح.

انتهى ما أردت نقله مما كتبه موسى بن ميمون قبل ٧٥٠ سنة، وكل ما قاله صحيح وإن تكن ألفاظه وتعبيراته عتيقة غير مألوفة، وخلاصة ما يقول أن الحال النفسية تؤثر في الحال الجسمية، وأن مرض النفس قد يجعل الجسم يمرض، بل أحيانًا يموت. وليس هناك سيكولوجي يمارس العلاج النفسي إلا مرّت به مئات الحالات التي وجد فيها أمراضًا في الجسم تعود إلى أمراض النفس، وقد تكون هذه الأمراض طفيفة أو خطيرة. فنحن نعرف مثلًا أننا عندما نتلقى خبرًا مزعجًا أو محزنًا لا نجد اشتهاؤنا العادي للطعام، فالنفس «مسدودة»، ولكن عندما نقعد إلى أصدقائنا وأحبائنا فإننا نأكل وكأننا لا نشبع.

وكثيرًا ما سمعنا عن رجل فوجئ بخبر سيء فلم يتحمّله ومات فور استماعه له. وحين نكره عملًا نحس ارتخاء في الجسم وتكاسلًا وفتورًا، بل نحس أحيانًا صداعًا؛ لأننا لا نطيق العمل أو الرئيس الذي يشرف علينا فيه.

وأعظم الأمراض النفسية الفاشية، وهي تعمنًا جميعًا بدرجات متفاوتة هي الخوف، فإننا نعيش في حضارة غير مأمونة، نتعرض فيها للموت من الحوادث، للإفلاس الذي لا يمكن الحذر منه، وللأمراض التي تتسلل إلى أجسامنا خفيفة، ولفواجع الموت للأصدقاء أو المقربين، وأحيانًا تخشى المرأة زوال شبابها، كما يخشى الطالب رسوبه في الامتحان أو خيبته في الحصول على عمل يرتزق منه بعد الحصول على شهادته الجامعية.

هذه مخاوف نعيش فيها، وهي تحيط بنا طيلة حياتنا تقريبًا، وقد تكون طفيفة فتحدث همًا خفيفًا أو قد تفدح فيكون الهم عظيمًا.

وما هو الهم؟ هو خوف متردد نتوقعه بحق أو بغير حق، وهو أسوأ من الكارثة التي نحس هذا الهم خشية من توقع حدوثها.

وأسوأ ما في الهم أنه يلزمنا قلقاً يخيم على عقولنا، ويظلم رؤيتنا للعالم ورؤيانا للمستقبل ويبقى معنا السنوات، فلا نبصر بالأشياء على أبعادها الحقيقية؛ لأننا لا نرى الأشياء الموضوعية إلا بالصورة الذاتية التي غرسها فينا الهم، وقد يزيد الهم والقلق فلا نعرف لماذا نحن مهمومون قلقون، وقصارى ما نجد أننا في عادة راسخة هي عادة الهم والقلق.

وكما أن الخبر السيئ المحزن أو المزعج «يسد النفس عن الطعام»، كذلك الهم الدائم يعطل وظائف الجسم، فالهضم يسوء والشرابين تنقبض والقلب يدق، وباستمرار الهم تستمر كل هذه الأعراض.

ولكن استمرار هذه الأعراض يجعلها تتفاقم في الجسم، فلا تكون أعراضاً فقط، وإنما تصبح أمراضاً خطيرة.

فالهضم يسوء ويستمر حتى تجد أننا مسهلون بلا سبب واضح أو أننا نتعب من بعض الأطعمة التي لا يتعب منها غيرنا، أو أنه قد تكونت بالمعدة قرحة، أو أننا لأقل انزعاج يزيد على ما عندنا من هم أو قلق تطفح على بشرتنا بثور قد تتقيح ويطول بقاؤها قبل الشفاء.

بل هناك من يعزو نوبات الربو والروماتيزم إلى الهموم.

وعندما يستمر انقباض الشرايين يزيد ضغط الدم، وعندئذ نكون عُرضة لأمراض تصلب أو القلب، وعامة الناس يعرفون أن الهموم تؤدي إلى الموت المبكر، وأن المعمرين لا يحملون هموماً، أي لا يخافون.

ماذا نفعل كي نتجنب أمراض الجسم التي تنشأ من أمراض النفس؟ نفعل ما ينصح به موسى بن ميمون: أي الفلسفة العملية.

إن حاجتنا إلى الفلسفة لا تقل عن حاجتنا إلى الغذاء؛ إذ يجب أن نكون حكماء نتصرف بحياتنا وغرائزنا وأهدافنا وسلوكنا التصرف الحكيم، فننتقل دنيانا ومجتمعنا، ولا ننفعل للمخاوف المحيطة بنا، ولا نستسلم للطموح البعيد الذي يهلكنا ولا للغيرة أو الحسد اللذين يحطمان أعصابنا.

الخمور والمخدرات

من المعقول، بل من الواجب، أن نعاقب المتجرين بالمخدرات.
ولكن ليس من المعقول أن نعاقب المرضى الذين يتعاطون المخدرات، يجب أن
نضع المتجر بالمخدرات في السجون، ولكن يجب أن نضع المتعاطين لها في المصحات.

* * *

الحضارة القائمة تحتاج إلى مقدار من المخدرات، ولكن ليس إلى المخدرات الفاتكة مثل
الكوكئين والهيروين والمورفين، وإنما إلى منبهات خفيفة مثل القهوة أو الشاي أو الدخان
أو الخمر.

المخدر حين يكون خفيفاً يكون منبهاً، مثال ذلك: حين نجد رجلاً قد تهافت وارتخت
أعضاؤه في إغماء وقتي حتى صار قلبه لا يدقُّ إلا دقائق ضعيفة بطيئة، حين نجد رجلاً
على هذا الحال، فإننا ننبيهه بكأس من الخمر.

كأس من الخمر ينبهه، فيهب القلب وينشط بعد فتور، ويذهب الإغماء ويفيق الرجل.
ولكن أربع كئوس أو خمساً من هذه الخمر تخدر وتبنج فينام من يشربها.
ولذلك لنا الحق في أن نذكر الخمور باعتبار أنها منبهة مثل الشاي والقهوة إذا
تناولناها ونحن متعبون في قلة، وهذا هو ما يفعله جميع المتمدنين تقريباً.
والإكثار من الخمور مثل الإكثار من الطعام يحطم الصحة.

ولكن حين نقارن بين المخمور بالخمير وبين المخدر بالهيروين فإن المقارنة تشبه المقارنة بين رجل في الجنة وآخر في جهنم.

حضارتنا مقلقة مرهقة، تبعث التوتر في عقولنا وأعصابنا وتملؤنا بالشكوك والمخاوف والهموم، وغيبوبة النوم ليست في أساسها راحة للجسم، وإنما هي راحة العقول والأعصاب؛ لأن النوم يريحنا من الوعي، أي من الشكوك والمخاوف والهموم، نحو ثماني ساعات كل يوم.

بل أحياناً تقوم الأحلام مقام العلاج، العلاج الوقتي، فتخفف من همومنا؛ لأنها ترسم لنا صوراً وخيالات جميلة، تلغي بها الواقع الذي لا نحتمله في يقظتنا مما أحدث لنا مخاوف وهموماً وتوترات، فنستيقظ في الصباح ونحن مرتاحون بعض الشيء. ولكن النوم لا يكفي لشفائنا؛ ولذلك نحتاج إلى نوم صناعي إلى جنب النوم الطبيعي. ولعله، أي النوم الطبيعي، كان يكفي لو كنّا نعيش في حضارة أخرى لا ترهقنا بالمخاوف والشكوك.

ولذلك احتاجت جميع الأمم، بلا استثناء حتى الأمم المتوحشة، إلى أنواع من الخمور التي عرفها المصريون القدماء، كما عرفتها قبائل التتار، كما تعرفها كل أوروبا وأمريكا الآن، بل كما تعرفها الصين التي تصدر الشمبانيا هذه الأيام. نحتاج إلى نوم صناعي بالخمور، فإذا لم توجد الخمور فإننا نضيق بأنفسنا، فنتشاجر لأقل استفزاز في البيت، وقد يزيد الضيق حتى نفكر في الانتحار أو نقع فيه. الخمور تُصلح ما بين الزوجين المتخاصمين.

وكثير من المشاجرات الزوجية، بل كثير من حوادث الطلاق، كان يمكن تلافيه لو كانت الخمور مألوفة في بيوتنا كما هي مألوفة في أوروبا وأمريكا. بل عندئذٍ ما كان يمكن المخدرات الوبيلة أن تتفشى؛ إنما تتفشى هذه المخدرات الوبيلة حين لا توجد الخمور، وهذا هو ما ثبت للأمريكيين.

تجربة أمريكية استمرت عشر سنوات يجب أن ندرسها في رزانة التعقل وشرف الذهن. فقد هبَّ رجال الدين في الولايات المتحدة يدعون الشعب إلى منع الخمور صنعاً وبيعاً، ونجحت دعايتهم التي انتصروا بها على العلميين من السيكلوجيين والاجتماعيين. لمن يصنعها أو يبيعها، ولكن، وهذه الكلمة كبيرة القيمة لنا، لم يسس قانون لمعاقبة من يشربها.

فماذا حدث بعد ذلك؟

حدث أولاً أن الخمور لم تمنع، وإنما كانت تصنع في السر صنفاً سيئاً؛ ذلك لأن صانعها كان يعرف أنه معاقب حتماً، أصنع خمراً سيئاً قليلة التكاليف أم خمراً حسنة كثيرة التكاليف، فأثر السيئة على الحسنة حتى يزيد كسبه.

ولكن هذه الخمور السيئة كانت أهون الشرور.

أما الشر الخطير فهو أن المخدرات الوبيلة، مثل الحشيش والأفيون والهيروين والكوكئين والمورفين دخلت في أمريكا وتعودها الشبان والكهول والنساء.

لم تكن أمريكا تعرف هذه المخدرات قبل إلغاء الخمور، ولكنها عرفتھا بعد إلغائها. وندم الأمريكيون؛ لأنهم استمعوا إلى دعاية رجال الدين.

وعادوا، بعد عشر سنوات من الفساد، فأذنوا بصنع الخمور وبيعها، هذه تجربة ويجب أن ننتفع بتجارب الأمم إذا كنّا عقلاء.

كل من الخمور والمخدرات الأخرى تلصق بمتعاطيها وتعوده تناولها كل يوم.

التعويد هو أسوأ ما في الخمور والمخدرات، ولكن شارب الخمر، حين يجد كفايته في ثلاث أو أربع كئوس وهو في سن الثلاثين لا يحتاج إلى زيادتها إلى خمسين حين يبلغ السبعين أو الثمانين من العمر.

أما متعاطي المورفين مثلاً فإنه يبدأ بجرام أو أقل كثيراً، ثم يحتاج إلى زيادة مطردة في مقدار ما يتعاطاه، حتى إن ما يتناوله بعد عشر سنوات يكفي لقتل رجل لم يتعود تعاطي هذا المخدر، ثم الإقلاع عن تعاطي الخمور، حتى بعد الإدمان، سهل بالمقارنة إلى تعاطي المخدرات، فإن من يقع فيها يكاد يعجز العجز التام عن إبطالها.

مع كل ما ذكرنا نحتاج إلى أن نعترف بأن هناك أفضاذاً من الرجال والنساء لا يحتاجون إلى القهوة أو الشاي أو الدخان، كما لا يحتاجون إلى الخمور والمخدرات، ولكن هؤلاء أفضاذاً لا نقيس عليهم، وهم في الأغلب يحيون حياة إيجابية، يحبون أعمالهم، ولا يرهقون أنفسهم، ولا يطمحون إلى المستحيل، هم قانعون هادئون لا يتوترون أو يقلقون. ولكننا لسنا كلنا كذلك.

قد يقال: إن الدين يحرم الخمور، وأنا أشك في أنه يوجد دين قد حرم الخمور تحريماً قطعياً، ثم هناك من يزعم أن الدين يحرم أيضاً التدخين، ولم أنس بعد أن «يعقوب» قد بارك على أبنائه قبل وفاته ودعا لهم بالوفرة في دماء الأعناب، أي في الخمور.

نستطيع أن نصنع الخمر في مصر من الزيت والشعير والبلح والقصب، نستطيع أن نزيد دخلنا القومي نحو مائة مليون جنيه كل عام بصنع الخمر، بل ربما نستطيع أن نزيد الدخل مائتي مليون جنيه، ثم نكسب مع ذلك استغناءنا عن المخدرات الوبييلة.

قلتُ في بداية هذا الفصل: إن الحضارة القائمة تحتاج إلى مقدار من المخدرات. وذلك لأنها ترهقنا بهموم وتوترات ومخاوف، وتنصب أمامنا مطامع نعجز عن تحقيقها، وعندئذٍ نحتاج إلى أن ننسى همومنا أو نفر منها بالمخدرات، وقد يقال: إن التحايل النفسي يمكن أن يشفي من هذه التوترات والهموم، وهذا صحيح، ولكنه يحتاج إلى نفقات غير يسيرة، بل أحياناً مستحيلة. وإذن نجد في الخمر العلاج الميسر.

الإرهاق سبيلٌ إلى المرض والموت

المتأمل السيكولوجي لحياتنا الاجتماعية يكاد ينتهي إلى القول بأن جميع أمراضنا حتى ما نسميه الأمراض الميكروبية التي تنتقل بالعدوى، يكاد يقول: إنها أمراض نفسية، أي سيكولوجية.

اعتبر مثلاً هذا الإرهاق الذي تحملنا عليه المباراة من أجل الكسب أو الجاه أو المكانة أو الغيرة، هذا الإرهاق الذي يفتت أعصابنا ويجعلنا عرضة لنمو المرض الذي يصيبنا ويقتلنا، مع أنه قد يصيب غيرنا فلا يؤثر؛ لأن الإصابة وقعت على شخص لم يرهق، فهي تزول كما لو كانت دخاناً أو غباراً قد مرَّ به ثم تخلَّص منه.

هذا شخص قد أصابه رشح، فهو يعطس ويسيل أنفه، ثم بعد ساعات يفيق من هذه النزلة وكأنه قد نسيها، ولكن هناك شخصاً آخر قد أصابه مثل هذا الرشح، فهو يعطس أيضاً ويسيل أنفه أولاً وبعد أيام نلقاه في السرير يعاني التهاباً في شُعب الرئتين، وقد يحتاج إلى أسبوعين أو أكثر للعلاج، وقد يموت من الإصابة.

والفرق بين الاثنين أن الأول الذي أفاق بعد ساعات من العدوى كان مرتاحاً، أما الثاني فكان مرهقاً، تحمل الأول العدوى وتخلَّص منها، في حين أن الثاني عجز عن التغلب عليها.

وكلمة مرهق لا تعني التعب فقط؛ لأننا قد نتعب ونلهث ثم نرتاح ونفيق، ولكن الإرهاق يعني ضغط أعصابنا جملة أسابيع أو شهور بأعمال وتكاليف وهموم واهتمامات لا نستطيع النهوض بها، فالجسم ينهار ويعجز عن المقاومة.

وانهيارنا في النهاية هو انهيار الأعصاب، أي هو في لغة السيكولوجيين، الانهيار السيكولوجي، ذلك أن أعصابنا التي يرأسها الدماغ هي المشرفة على أجسامنا ولن نمرض ولن نموت إلا بعد انهيار المجموعة العصبية المشرفة.

إننا نقرأ هذه الأيام، مع الأسف، أخبار الوفيات المفاجئة لفشل القلب أو انفجار الشرايين، والموت يعود إلى خلل أو صداع في أحد أعضائنا الرئيسية، ولكنه مع ذلك قد نشأ أصلاً من توترات سابقة، أي هموم وأعباء وضغوط وواجبات؛ ولذلك نجد أن الذين يموتون بالسكتة أو النقطة هم أحسن رجالنا الذين ترهقهم هذه التوترات، وليس هناك سيكولوجي قد تعمق موضوع التوترات إلا وهو على ثقة، تبدو لأفراد الجمهور أنها إسراف أو حماسة، بأن كثيراً من أمراض الجسم إنما هو في الأصل نفسية، وأن الموت بالبول السكري أو تليف الكبد، أو عجز القلب أو القرحة المعدية، أو انفجار الشريان، أو حتى بعض الأمراض الميكروبية، كل هذه الأمراض يعود إلى إرهاق سابق أدّى إلى انهيار في مقاومة الجسم، فكان المرض ثم الموت.

وقد استطاع عالم كندي أن يحقق ذلك، وأن يقول في تأكيد إنه ليس هناك مرض يصيبنا إلا بعد إرهاق أدى إلى عجز في المقاومة حتى ولو كان مرضاً ميكروبياً. وأحب أن أكرر أن انهيار الجسم وعجزه عن المقاومة لا يعني التعب والعرق والجهد، وإنما يعني الإرهاق العصبي، أي التوتر النفسي الذي يلازمنا يوماً بعد يوم عدة أسابيع أو شهور من الهموم لا نطيقها، وهذا العالم الكندي يعين الإرهاق بأنه قد يكون قلقاً نفسياً لا يطاق، أو إرهاق العمل المتواصل، أو تعرضنا لبرودة قاسية أو حر قاسٍ لمدة غير قصيرة، ففي كل هذه الحالات يكون الجسم مستعداً لقبول المرض حتى ولو كان هذا المرض ميكروبياً ينتقل بالعدوى.

وعندما نقول بضرورة تجنب الإرهاق إنما نعني ضرورة الاعتدال، يجب أن نعتدل في كل شيء نمارسه، نعتدل قبل كل شيء في مطامعنا، حتى لا يرهقنا تحقيقها أو محاولة تحقيقها، ونعتدل في ساعات عملنا كل يوم، فلا نعمل في الليل والنهار، ونعتدل في تعرضنا للبرد أو للحر، ونعتدل في تحمل الهموم فلا نقلق ونأرق؛ إذ يجب أن نكون حكماء، والحكيم لا يقلق ويأرق حتى يموت، وكذلك يجب ألا نتعس أبناءنا، أي لا نرهقهم بالذاكرة حتى لا ينهاروا أو يمرضوا.

إن الدنيا تحتاج إلى الجهد، ولكنها لا تستحق الإرهاق، وهي لا تطالبنا به، والمغفلون هم الذين يرهقون أنفسهم كي يثروا أو يرتقوا إلى مكانة اجتماعية عالية. وعلى الدولة وعلى المجتمع وعلى كل فرد منا أن يعرفوا جميعهم قيمة الراحة النفسية، وأنها هي الأساس الأول، إن لم تكن الأساس الوحيد للصحة، فعلى القاضي والمحامي والطبيب، وكل من يتحمل مسئوليات تؤدي إلى التوترات، أن يجعلوا الإجازة السنوية

حتمية، وأن يفروا كل عام في عجلة، بل هرولة إلى المصايف، حيث يقضون شهرًا أو شهرين بعيدين عن المسئوليات.

هذه الراحة السنوية هي راحة الجسم كله؛ لأن الأعصاب تشرف على الجسم. وكلمة أخيرة أقولها للتلاميذ والطلبة ولغيرهم ممن يدرسون القضايا والمشروعات والمقاولات، أقول: ادرسوا الموضوع، فإذا أحسستم التعب فكفوا عن الدرس حتى تراحوا، فإذا وجدتم أنكم مضطرون إلى متابعة الدرس فلا بأس من هذه المتابعة، ولكن إذا أحسستم أن التعب يزيد ويؤلم، فيجب التوقف.

وبمعنى آخر تذكروا أن لنا ثلاثة أنفاس في التعب:

النَّفَس الأول: في الدرس نستطيع أن نسير فيه بصحة وراحة.

النَّفَس الثاني: في الدرس عقب التعب من الدرس الأول، يمكن أن نؤديه مع التعب، ولكن بلا خطر.

أما النَّفَس الثالث: فهو الخطر، كل الخطر، هو الموت أحيانًا، وأحسن ما نرتاح به هو النوم، وليس التسلية بأي عمل آخر غير الدرس.

النوم هو سيد الفضائل، والرجل الذي يعجز عن النوم أو لا يعنى به ليس فاضلاً؛ إذ هو ضجر لا يتحمل الجهد، كما هو انفعالي يغضب لأقل استفزاز؛ ولذلك لا يعرف التسامح، وإذا كان قاضياً وضع العدل فوق الرحمة.

كي نكون فضلاء يجب أن «نغرق» في النوم ثماني ساعات كل يوم على الأقل.

كيف يُخترع الاختراع

لماذا تكثر المخترعات الجديدة في الولايات المتحدة الأمريكية؟ لماذا اخترعت الغسّالات الكهربائية، وكذلك الكناسات، ومكيفات الهواء للغرف، والثلاجات والمصانع التي تدار بالأزرار؟

السبب الوحيد أن أجور العمال، وكذلك الخدم في المنازل، قد ارتفعت ارتفاعاً عظيمًا، فظهرت الحاجة أم الاختراع، وهي إيجاد أجهزة وآلات تقوم مقام الخدم في المنازل، وتؤدي أعمال العمال في المصانع.

والمصانع بالأزرار هي أعجوبة زماننا، ففي روسيا مصنع واحد، واحد فقط، يكفي الاتحاد السوفيتي كله (وهو ٢٠٠ مليون إنسان) بما يحتاجه من البستونات، وفي أمريكا مصانع تصنع من السيارات هذه الأيام عددًا أكبر مما كانت تصنع قبل عشرين سنة، ولكن مع عدد أقل من العمال؛ وذلك لأن كثيرًا من آلات هذا المصنع تعمل أوتوماتيكيًا، أي إنها تعمل بذاتها بلا حاجة إلى عمال سوى الإشراف البعيد، بحيث صار عامل واحد يعمل مقدار عاملين أو خمسة عمال أو أحيانًا عشرة عمال قبل عشرين سنة. أجور العمال عالية، فالحاجة ملحة إلى الاستغناء عنهم بالاختراع أي اختراع الآلات، الآلة تعمل بالمجان، أو على أعلى تقدير بقوتها أي وقودها.

ما الذي منع الشعوب القديمة مثل المصريين والإغريق والرومان من الاختراع؟ شيء واحد، هو الرق.

لأن العبد، مثل الآلة، يعمل بالمجان، أي بقوته فقط.

فلماذا يخترعون الآلات ما دام عندهم عبيد؟

وكذلك الشأن عند العرب لم يخترعوا؛ لأنهم كانوا يمارسون الرق.

لقد أَلَفَ الإغريق والعرب في الفلسفة والرياضيات، أي في التفكير النظري؛ لأن المفكرين عندهم لم يكونوا عمليين، أي لم يتصلوا بالعمل اليدوي؛ لأن العمل اليدوي كان مقصوراً على العبيد، ولو لم يكن عند الإغريق والعرب عبيد لكان التفكير يتجه نحو الاختراع لتخفيف أعباء العمل.

لم يكن الإغريق والعرب ناقصين في القدرة على الاختراع، ولكنهم مارسوا الرق، فاستغنوا عن الاختراع.

بل إنَّ الرقَّ مسئُول أيضاً عن ارتخااص قيمة المرأة العربية؛ إذ ما دمت أستطيع أن أشتري جارية أتصرف بها كما أشاء لماذا أطالب أو أسلم بحقوق للزوجة؟ ووجود الجارية المشتراة والزوجة الحرة في بيت واحد جَوْاً سيكولوجياً يساوي بين الالئنتين في المعاملة، بل وربما يرفع الجارية على الزوجة إذا امتازت الأولى على الثانية بصفات في الجمال أو السن أو الرشاقة.

وكما منع الرق المخترعات عند الشعوب القديمة كذلك في عصرنا الحديث، منع انخفاض أجور العمال في الزراعة، والفقر والجوع الذي عاش فيه فلاحونا، مع استعمال الآلات الزراعية قلل من استعمالها كثيراً.

وهذا زيادة على أننا لم نفكر في الاختراع للزراعة. ارتفاع أجور العمال في أمريكا أدى إلى اختراع الآلات للاستغناء عنهم، وانخفاض الأجر في مصر أدى إلى الاستغناء عن الآلات وإهمال الاختراع.

كيف يخطر الاختراع؟

لا بدّ من حال اقتصادية اجتماعية معينة تؤدي إلى حال سيكولوجية ذهنية معينة، كيف اخترعت الكتابة مثلاً؟

لما انتشرت الزراعة في مصر احتاجت الحكومة إلى أن تجمع من المحصولات حق فرعون، ولم يكن من الممكن الاعتماد على الذاكرة، فكانت الصور الأولى أي الهيروغليفية لتسجيل تسليم المحصولات لمعابد الكهنة وخزائن الدولة.

ثم ازداد السكان وزاد الإنتاج، وكثر الوارد على المعابد والمخازن، فصارت الحاجة ملحة لإيجاد حروف مبسطة لسرعة الكتابة وسهولة القراءة، فظهرت حروف جديدة هي أصل الكتابة في العالم كله.

لماذا اخترع المصريون القدماء السنة الفلكية الأولى في العالم وهي السنة التي نعمل بها في أيامنا بأسماء يناير وفبراير ... إلخ؟

كيف يُخترع الاختراع

الجواب: أنهم مارسوا الزراعة، وكان الشهر عندهم قمرياً قبل أن يعرفوا الزراعة، ولكن الزراعة لا يمكن أن تعتمد على القمر، فاحتاجوا إلى سنة أخرى لا تتغير أيامها في اختلاف السنين كما تتغير بالشهور القمرية، فكان من ذلك هذه السنة الشمسية التي نعمل بها إلى الآن.

الكتابة والتقويم نشأ كلاهما من الحاجة «المادية»، ومخترعاتنا، أي مخترعات الشعوب المتقدمة، بل غير المتقدمة تنشأ في أيامنا أيضاً من الحاجة المادية.

ونستطيع أن نتصفح التاريخ ونسأل: لماذا هذا الاختراع هنا وليس هناك؟ فإنك واجد على الدوام حاجة مادية ملحة، هي في صميمها اقتصادية اجتماعية، تبعث جواً سيكولوجياً ذهنياً يطلب الاختراع.

وهنا استنتاج: هو أن الشعب الذي يسحق عماله بالأجور التافهة، إنما يضع بذلك سورا بينه وبين الاختراع.

لأن العمال المسحوقين يكونون عندئذٍ أرخص قيمة وأقل نفقة من آلات الحديد، والشعوب التي لا تزال تمارس الرق في عصرنا، إنما تسد المستقبل والاختراع في وجوه أبنائها.

الانتحار بالموت وغيره

من أحسن ما قرأت وتأملت قصة أحد المتهمين السياسيين في ألمانيا أيام هتلر، فقد اتهم هذا الرجل بالخيانة للوطن، وأنه ينضوي سرًا إلى علم من أعلام الأعداء، وكان عقاب المتهم بمثل هذه التهمة، وخاصة عند هتلر في أزمانه السياسية التي كان يخترعها ثم يقع فيها، هو الإعدام أو ما يقاربه من السجن المؤبد والتعذيب المر.

ولم يكن هذا الرجل المتهم يعتقد أنه بعيد عن الحكم عليه بالإعدام، ولكن قلبه كان ينطوي على جزء ضئيل من الأمل بالبراءة، كما كانت نفسه، حتى وهو ينتظر المحاكمة، تنزع إلى الكفاح، وكان يؤمن بأن حجته في الدفاع عن نفسه سوف تكون من القوة بحيث يقنع القضاة ببراءته حتى ولو كان هؤلاء القضاة يشايعون هتلر.

وأحسَّ الرجل أن عوامل الحياة بالأمل والكفاح تنتصر في نفسه على عوامل الموت باليأس والاستسلام، فلم يتبرم بالحبس في انتظار المحاكمة، وإنما استغل هذا الحبس بأن شرع يتعلم لغة أجنبية.

تأمل هذا أيها القارئ: رجلٌ متهم يخشى الحكم بالإعدام يتعلم لغة أجنبية في السجن، هنا نجد انتصار الحياة المكافحة المؤلمة.

وهناك كثيرون غيره لو كانوا في مكانه لاستسلموا للموت ينتظرونه كأنه على ميعاد معهم، ثم كانوا يتهيئون لهذا الموت بالفتور والكسل، وربما أيضًا بالاعتراف بالاضطراري الذي يرخص للقضاة الحكم بالإعدام عليهم.

ونحن جميعًا في الحياة العامة، في مثل هذا المأزق في كثير من الأحيان، فإننا نواجه أزمات تطالبنا بالاختيار بين الكفاح أو الاستسلام، بين الحياة أو الموت. وأحيانًا تكون الهزيمة كاملة، فننتحر.

والمنتحر عادة شخص نشأ في طفولته على النعومة والدلال؛ إذ وجد من أبويه التمهيد لكل صعوبة والتسليم بكل رغباته، فلم يتعلم كيف يكافح ولم يجد قط لذة الكفاح في الصعوبة، ننتصر عليها، أو العقبة نثب من فوقها، ولم يتعب ويعرق قط في عمل كاسب؛ لأنه «ورث» مالا يغنيه، والأغلب أيضًا أن المنتحر يكون وحيد أبويه، هذا الولد الوحيد المدلل الغني المرفه الناعم، الذي لا يكسب ولا يتعب، حتى حين يجد الوظيفة التي تأتيه مجانًا بسلطة أبيه، ولكن ما هو أن يقع في أزمة، أو تستولي عليه توترات نفسية لشأن ما، حتى يجد أن الدنيا قد أظلمت في عينيه، وأن الموت خير من الحياة، فتنزله الشكوك، وتغدو الحبة قبة، ويجد في المشكلة الهينة التي يحلها غيره بأيسر سبيل، أو لا يكثر لها، يجد نذيرًا بالدمار الذي يحمله على الانتحار، مع أن هذا الدمار المتوقع لو تم لكانت كارثته دون الانتحار، ولكن هناك ما هو دون الانتحار من الاستسلام للهزيمة، مما يعد انسياقًا في نزعة الموت، فإن الشباب حين يرضى بالفقر والوضاعة والكسل والإحجام إنما ينتحر؛ لأنه لا يطمح إلى الارتقاء والنمو والتوسع.

اعتبر هذا المثل:

«ج. ر» شاب في الثلاثين، كان يعاني مرضًا في الكليتين، واستشار بعض الأطباء الذين ملئوه تشاؤمًا، وأوهموه بأنه لن يعيش كثيرًا، ورسخ فيه هذا الاعتقاد، حتى تغيرت أهدافه في الحياة، ففنع بأدون العيش، وتزوج فتاة دون مكانته الاجتماعية، كما كانت أيضًا خالية من الميزات النسوية التي يرغب فيها الشبان، وأحجم عن التناسل، أي إنه استسلم للموت، ولعله فكر كثيرًا في الانتحار.

وربما نعذره في بعض هذا السلوك، وإن لم تكن نعذره في كل هذا اليأس، ولكن صورة هذا السجين عند هتار يجب أن تبرز أمامنا في كل وقت، وذلك بأن نضع الأمل فوق اليأس، ونؤيد الحياة في انتصارها على الموت.

والعجيب في هذا الشاب الذي ذكرته أنه عاش بعد الزواج نحو عشرين سنة، ولم يمض من كليتيه كما أوهمه الأطباء، عاش وارتقى وأثرى، ولكنه ما زال يتطعم مرار اليأس، الذي استولى عليه وأفسد حياته، ويندم.

والعبرة هي: ما دمنا أحياء فوجب أن نتشبث بالحياة، ونحرص مع ذلك على أن تكون حياتنا كريمة، ويجب أن نعوّد أطفالنا مجابهة الشدائد، ونغرس فيهم إحساس اللذة بالانتصار على الصعوبات حتى ينشئوا مكافحين.

والمكافح لا ينتحر بقتل نفسه، ولا ينتحر بالاستسلام للهزيمة والفقر والكسل والتراخي، حتى ولو عرف أنه يعاني مرضًا مميتًا، فإن أعظم الأطباء لا يستطيع أن

يصدر حكمًا قاطعًا بأن أحد الأمراض سوف يقتل المريض قبل خمس أو ست سنوات، بل عندي أن الحياة مع المرض خير من الموت في كل حال.

الحياة وعي وإحساس وعقل، وما أعظمه «جلادستون» الوزير الإنجليزي الذي كان يتألم وهو في حشجة الموت، فعرض عليه الطبيب أن يخدره حتى يموت في راحة وغيبوبة، فأبى؛ لأنه أراد أن يكون على وعي وإحساس وتعقل في الدقائق والثواني الأخيرة من حياته. أبى أن يموت قبل ميعاد الموت.

اطلب المال ولكن ...

نحن نعيش في مجتمع اقتنائي نفاخر فيه بالمال والثراء، ونعرف أننا لن نستطيع أن نحصل فيه على سلعة أو خدمة إلا بعد أن نبذل ثمنها بالجنيه والقرش، بل نعرف أننا إذا أهملنا تحصيل المال ورضينا بالحرمان، أو بما يقارب الحرمان من الكسب القليل والمدخر الصغير فإننا لن نحصل على حاجتنا من الحضارة والثقافة، وعندئذ لا يكون أمامنا من وسائل البقاء أحياء غير التسول أو الإجرام.

في مجتمعنا الحاضر تُعدُّ القدرة أو الكفاءة على تحصيل المال من الواجبات الأولى لكل شاب أو فتاة، وليس شك أن الفقير الأبوي يمكنه أن يمارس الفضائل في قناعة، أو على الأقل بعض الفضائل، ولكن المحروم لا يستطيع ذلك إلا إذا تسوّل.

والاشتراكي الذي يتفاهل بالعلم ويؤمن بالمستقبل يجد الوقت قريباً حين يزول الفقر، ولكن إلى أن نبلغ هذا الوقت يجب أن نوّكد قيمة المال في حياتنا الاجتماعية الحاضرة.

يجب أن نهدف جميعاً إلى الغنى، ولكن يجب أيضاً أن نحذر الغنى، إني كثيراً ما أتأمل الأثرياء الذين يستمتعون بالمال والعقار، ويستخدمون الموظفين لإدارة أعمالهم ويستأجرون العمال في زيادة ثرائهم، فأجد ما يستغرب ويبعث على التفكير، فإن العامل يعمل في اليوم ثماني ساعات فقط، وعنده بعد ذلك نحو ثماني ساعات للاستمتاع بحياته مع زوجته وأبنائه أو مع أصدقائه، أو هو يمضي هذه الساعات أو بعضها في القراءة أو التفرّيج برؤية بعض الملاهي، وكذلك الشأن بين الموظفين.

ثماني ساعات أو أكثر أو أقل يعملون فيها لكسب العيش، ثم بعد ذلك فراغ، هم أحرار في استعماله.

ولكن الثري الذي يستخدم هؤلاء الموظفين والعمال أنفسهم كثيراً ما تحمله شهوة الثراء على أن يعمل ١٢ أو ١٤ ساعة في اليوم يمضيها وهو قاعد إلى مكتبه يحسب ويعد

ويراجع ويفكر، فإذا قصد إلى بيته بعد ذلك كان خائراً مرهقاً لا يستطيع مؤانسة أبنائه أو الاستمتاع بأية متعة إنسانية جميلة.

هو عبد لثرائه، وليس سيّداً له، والأغلب أنه يموت قبل الستين، لكثرة الإرهاق المضني، وتحمل الهموم الخاصة بأعماله، وقلقه الدائم على مكاسبه، وخوفه من الخسارة ونحو ذلك، وهذه الحالات هي أمراض العصر الحديث الذي عمّ فيه القلق، واحتدت فيه المباريات للسعي المجهد وراء الثراء.

وإذا عمدنا إلى المقارنة بين هذا السيد الثري وبين موظفيه وعماله، من حيث القيم الإنسانية وجدنا هؤلاء يفضلونه؛ إذ هم أصح أجساماً وأنور عقولاً وأهدأ بالاً منه، ونظرتهم للحياة أكثر تفاؤلاً منه، وكثيراً ما أسمع كلمة «عصامي» في معرض المدح والتقدير، وليس شك أن الفقير الذي يرفع نفسه بجهد واستقامته إلى مكانة عليا أو متوسطة جدير بالثناء، إذا كان قد وصل إلى هذه المكانة بالوسائل الشريفة النظيفة، ولكني حين أتأمل بعض العصاميين في سلوكهم، والخطورة التي يبدونها والفخر الدائم بأنهم كانوا فقراء فجدوا حتى وصلوا، وحين أسأل عن الوسائل التي استعملوها حتى وصلوا إلى مكانتهم الثرية أحسّ اشمئزاً منهم.

وجمهورنا الذكي يحسّ هذا الاشمئزاز من جلافتهم، ويسميهـم «أغنياء حرب» أو «محدثين»، ولم تعد تغريه كلمة «عصامي».

وهذه الجلافة مع الثراء برهان على أن هؤلاء العصاميين أمضوا طيلة أعمارهم الماضية وهم في الجمع والافتناء، فلم يرفهوا عن أنفسهم بشيء من تأنقات الحضارة المادية أو المعنوية، ولم يقرءوا كتاباً، ولم يناقشوا موضوعاً، ولم يحضروا حفلة، ولم يصادقوا رجلاً راقياً، وإنما عاشوا في المجتمع، منفردين لا يختلطون بأفراده إلا حين يكون لهم مأرب مالي وكسب منتظر، ومن هنا جهلهم الذي نشمئز منه، ومن هنا أيضاً محاولتهم تغطية هذا الجهل بأساليب مسرفة في الكرم البدائي، كأن يدعو أحدهم بعض الكبراء أو الممتازين إلى وليمة تحوي لحوماً وحلويات بكميات هائلة أو نحو ذلك.

ولكن أسوأ ما في العصامي أنه جمع أمواله في كثير من الحالات بطرق غير مشروعة في الكسب، والقاعدة في المباراة الاقتصادية الحاضرة هي: «اشترِ رخيصةً وبعْ غالياً»، وكثيراً ما يحمل هذا المثل معاني أخرى في غش السلعة، أو البخل على العامل بالأجر غير اللائق، أو نحو ذلك مما يعجز القانون عن علاجه.

هذا هو شأن العصامي، ولكن شأن الوارث أسوأ، وذلك أنه قد يخلو من الجلافة التي تبدو على العصاميين الذين «صنعوا أنفسهم»، ولكنه أي الوارث، ينشأ في نعومة وترف

يحملانه على الكسل والتراخي، والسعي وراء المتع التافهة، وكراهة المسئوليات، فيفقد الرجولة بل الإنسانية.

وقد بدأت كلمتي هذه بتأكيد القيمة العظمى للثراء، والسعي لتحقيق العيش الكافي، بل أوضحت أن المحروم إما أن يتسول وإما أن يرتكب جريمة السرقة، والفقير المحتاج يكاد يشبه المحروم، وذلك؛ لأننا لا نستطيع ممارسة الفضائل الاجتماعية، فضلاً عن أن نرقى بأنفسنا، إلا إذا كنا على شيء من اليسر المضمون.

فليكن جمع المال لهذا اليسر المضمون المأمون رائدنا، ولكن يجب أيضاً ألا نكون عبيداً للمال، نجهد ونعرق، ونعتقد أنه غاية الغايات، فلا نبالي كيف نجمله، وعلينا ألا ننسى أن المال هو بعد كل ذلك وسيلة للطمأنينة والاستمتاع، فلنجمع منه ما يكفي الطمأنينة والاستمتاع ولا أكثر؛ لأن ما يزيد على ذلك هو عبء نحمله بالمجان، ولا ننتفع به؛ لأنه يجهدنا ويبلينا ويميتنا قبل الأوان.

أيها الآباء: ارحموا الأبناء

نبهتنا جرائم التلاميذ والطلبة، وهي جرائم الانتحار وجرائم الاعتداء على الممتحنين أو المدرسين وقت الامتحانات، إلى ضرورة التفكير الجدي الرحيم بشأن أبنائنا، بحيث نهى لهم الوسط التعليمي الذي يسعدهم بدلاً من أن يتعسهم، ثم كذلك الوسط العائلي والوسط الاجتماعي.

فأما الوسط التعليمي فيجب أن تتعدد فيه الفرص للنجاح، وأن تؤلف الكتب الحسنة للمذاكرة، وألا نسد في وجه التلميذ أو الطالب أبواب الرزق، بأن نمنعه من الالتحاق بإحدى الكليات بحجة أن رسوبه قد تكرر في الامتحانات التي تهيئه للكلية، والذي يجب ألا يغيب عن بال الآباء والأساتذة والمدرسين أن الشاب أو الفتاة فيما بين الخامسة عشرة والعشرين من العمر، بل أحياناً بعد ذلك إلى سن الخامسة والعشرين مريضٌ نفسياً، ومرضه أقسى عليه (أو عليها) من أي مرض يصيب الجسم، فإنه يمكنه أن يتحمل السلّ (أي الدرن)، حتى في شهوره الأخيرة، أكثر مما يمكنه أن يتحمل الإرهاق النفسي، الذي يتألف من مجموعة من الشهوة الجنسية المكثومة، إلى أعباء الدرس، إلى الخوف من الفشل، إلى الإحساس بمسئوليته أمام أبويه ... إلخ.

هذه المجموعة من الكظم والإرهاق تزيد في آلامها على آلام الدرن حتى في شهوره الأخيرة المميته، وهي تحدث أحياناً ما يمكن أن نسّميه «جنون المراهقة»، وهو ليس جنوناً مريعاً، وإنما هو توتر عاطفي مقلق لا يطاق، ومن هنا مغامرة الشاب بارتكاب الجريمة أو بالانتحار الذي يعد جريمة ذاتية.

ولم يكن أبأؤنا أو جدودنا يعانون هذا التوتر، أو كانوا يعانون جزءاً صغيراً منه فقط؛ ذلك لأنهم كانوا يتزوجون قبل أن يبلغوا السادسة عشرة، وكانوا يقنعون بالدراسة

الابتدائية، أو حتى هذه كانوا يستغنون عنها، وكانوا كذلك قانعين بالمركز الاجتماعي الذي كان يتيح لهم مجتمع ساذج قليل المباريات قريب الأهداف.

كنا قبل ثلاثين أو أربعين سنة نضع غمامة على عيني الفتاة، وعلى عقلها أيضاً بالحجاب، فكانت تعيش في جهل وتسعد به سعادة الحيوان الذي يحيا في غيبوبة بعيداً عن الوعي بالحياة، وكانت تتزوج وهي دون الخامسة عشرة، وسرعان ما كان الأبناء يشغلونها بكثرتهم عن التفكير فيما يتجاوز في الطموح جدران البيت، أما الآن فهي تتعلم، وتتأخر في الزواج، وتطمح وتحمل المسؤوليات، وكل هذا إرهاق كثيراً ما تعجز عن تحمله.

وهذا هو واقعنا الآن، وأسوأ ما فيه أننا أخذنا بعادات المتمدنين في التعليم بدرجاته المرهقة، دون أن نأخذ بأساليب الترفيه للتلاميذ والطلبة، ذلك أن الشبان والفتيات يختلطون في أوروبا في دور التعليم أو خارجها، وهذا الاختلاط ترفيه بلا شك، يحول دون التوترات التي قد تؤدي إلى الجنون، كما أن وسائل التيسير وتوفير الفرص للنجاح في الامتحانات أكثر مما هي عندنا، وحسبنا المقارنة بين امتحان التوجيهية عندنا وامتحان المتريكوليشن في إنجلترا، وهذا إلى وفرة الاستمتاعات الأخرى التي يُحرّمها أبنائنا ويستمتع بها أبناء الأوربيين والأمريكيين، مثل المباريات الرياضية والأندية العديدة والدور السينمائية والتلفزيون، ولكن أهم من كل ذلك الاختلاط بين الجنسين.

ولكن في مصر نجد آباء يقسون على أبنائهم، فيمنعونهم مما يرفه عنهم أعباء الدرس بالاختلاط مع الجنس الآخر، وبالاشتراك في الأندية والألعاب الرياضية، بل أحياناً يمنعونهم حتى من قراءة المجلات الأسبوعية المصورة، كأنهم يجب ألا يضيعوا دقيقة من وقتهم في غير الدرس والتهيؤ للامتحان.

وعندئذ يحدث الكظم الذي يؤدي إلى التوتر، أي إلى المرض، فإذا جاءت أيام الامتحان تلقاها الشاب أو الفتاة بخوف مسرف، يعود بعضه بلا شك إلى أنه لم يذاكر دروسه كما كان يجب لكثرتها وصعوبتها، كما يعود بعضها الآخر إلى الكظم المؤدي إلى التوتر.

وإنني أعرف رجلاً في الأربعين والخمسين من أعمارهم يمكن أن أقول: إن نفوسهم مريضة، أو على الأقل ليست سليمة إلى الحد السوي، ومرجع مرضهم أنهم فيما بين سن ١٥ وسن ٢٥ كابدوا كظومًا وتوترات مرهقة عودتهم من العادات الجنسية والذهنية السيئة ما لم يستطيعوا التخلص منه بعد ذلك.

وهناك اعتقاد يشيع بين العامة من الآباء، هو أن الاستقامة في الأبناء تعني تجنب الملهي والملاذات، واتخاذ أسلوب من السلوك يشبه النسك، والشاب الذي يفعل ذلك عن

أيها الآباء: ارحموا الأبناء

رغبة في العزوف يعد مريضاً لا شك فيه؛ إذ هو شاذٌ لا تنطوي نفسه على شهوات الشباب، أما الشاب الذي يفعل ذلك؛ لأنه مقهور يخشى سلطة الأبوين، أو يهرب مخالفة التقاليد ونقد المجتمع، فيعد مرهقاً إلى حد المرض، وكثيراً ما نجد مثل هذا الشاب (أو الفتاة) ينفجر في النهاية انفجاراً فجائياً لم يكن يتوقعه أبواه أو سائر أعضاء أسرته أو أصدقائه، ومن هنا قصص الفتاة التي تفر مع أحد الجيران وتتزوج، أو تستبدل بدينها ديناً آخر لهذه الغاية، أو ذلك الشاب الذي يرتبط بعلاقة مجهولة مع الخادمة ... إلخ.

كل هذا يحدث من الكظم الجنسي الذي تزيد وطأته في مجتمع انفصالي مثل مجتمعنا، الذي يرتاب في أية صداقة بين شاب وفتاة ويحرمهما هذا الهناء الذي يسعد به أبناء الدنيا كلها دوننا، ثم نزيد نحن هذا الإرهاق بإرهاق آخر، هو تحريم المرفهات الأخرى التي تخفف من وطأة الدرس والامتحان.

ارحموا أبناءكم أيها الآباء، لا تحملوهم على الجنون والإجرام، يسّروا لهم الاختلاط بالجنس الآخر، رفقوا عنهم بالتنزه وارتياذ الملاهي، واكفلوا لهم نزهة سنوية لا تقل عن شهر على الشواطئ ولا تلحوا عليهم بالإمعان في المذاكرة، فكّروا في مستقبل أبنائكم جدياً، ولكن مع الرحمة والحنان.

على هامش السيכולوجية

حدث أن زارني شابٌ من المستهزئين يقصُّ عليَّ حلمًا اخترعه كي يمزح ويسخر، واستمعت إليه في جد وانتباه، وفسرته له في أمانة ودقة، فإذا به يصرخ في النهاية بأن هذا الحلم لم يقع له، وأنه قد اخترعه.

فكان جوابي: الحلم الذي تخترعه في اليقظة هو كالحلم الذي يقع لك في النوم سواء؛ وذلك لأنك حين تخترع إنما تنساق وفق أقوى الخواطر في نفسك، وهذا ما يحدث لك أيضًا في الحلم، وكل ما هنالك من فروق أن حلم النوم عمل مختلط أكثر من حلم اليقظة، وأنت قبل النوم، حين لا تزال في يقطتك، في الاسترخاء الذي يسبق إغماض العينين، تنساق في خواطر هي أحلام، تدلُّ على حالك النفسية مثل أحلام النوم. وما ظننت أنك خدعتني به خطأ، فإني لم أنخدع؛ إذ إنك كشفت لي عن أقوى عواطفك المسيطرة عليك في تأليف الحلم المخترع.

* * *

ما نسميه الإرادة إنما هو اندفاع تبعثنا إليه عُقد اجتماعية أو عائلية، أو هو تأثيرات إيجابية غير واعية (أي لا ندري بها) تسدّد نشاطنا نحو أهداف لا نبالي أن نتعب ونكد من أجل الوصول إليها؛ ولذلك كثيرًا ما تعطل الإرادة القوية بما يرافقها من عاطفة حادة الذكاء الشخصي، فنندفع اندفاعًا أعمى وراء المال أو الجاه أو اقتناء عقار مع الخسار، أو الزواج من امرأة ثرية أو نحو ذلك، ونحن في كل ذلك نظنُّ أننا أحرار، نختار ونريد، ولكن الواقع أننا مسوقون بعقد نفسية ومركبات إيحائية تجعل سلوكنا جنونيًا أو قريبًا من

أحاديث إلى الشباب

الجنون، وهذه العُقدة تحدث عاطفة أو مجموعة من العواطف، نندفع بها إلى نشاط مثابر عنيد؛ ولذلك نقول: إرادة حديدية، كأننا نمدح صاحبها، كما نرتب على الإرادة ما نسميه المسئولية.

* * *

يجب علينا، نحن السيكولوجيين، وعلى الآباء والمربين أن نختار الكلمات التي تصح أن تكون شعارات، نلقنها للشباب فيسترشدون بها في حياتهم:

- يجب أن نولد مرة أخرى.
- لذة الشرف.
- أهداف الحياة.
- برنامج جديد للسنوات الخمس القادمة.
- العقيدة انتحار العقل.

* * *

ليس بعيداً ألا يكون الدماغ وحده مركز الوجدان (أي الوعي)؛ لأن كل خلية في أجسامنا تحس هذا الوجدان، والنخاع الشوكي يتسلم ويختار ويؤلف وينقل، هو دماغ بدائي صغير.

* * *

ما هو التحليل النفسي؟
هو إخراج ما ليس إنسانياً من الإنسان.

* * *

الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يشغل نفسه بإيجاد العادات والقوانين لإحداث التوترات الجنسية، ثم يعود فيفكر في الوسائل التي تفرج عنها.

* * *

العقل الباطن الذي يختبئ عن وعينا، والذي يدفعنا أحياناً إلى سلوك معين من حيث لا ندري، هو الذات الحيوانية الكامنة في كل إنسان من حيث إنه حيوان قبل كل شيء.

* * *

المرض النفسي هو في النهاية انفعال مركز.

* * *

ليس من الضروري أن نقول: إن النيوروز أي الأزمة العاطفية أو الانفعال المركز يرجع إلى حادثة أو حوادث وقعت في الطفولة، فإن هذا القول وإن يكن صحيحاً على وجه عام، فإن هناك حوادث تحدث لنا في الشباب والكهولة تؤدي إلى النيوروز، بحيث لا نستطيع بالتحليل أن نجد لها أصلاً في الطفولة، ليس من الضروري أن نحفر عن الماضي كي نهتدي إلى حلٍّ للعقدة الحاضرة، فقد تكون هذه العقدة أبسط من ذلك، وقد يكون حفرنا عن الماضي سبباً لإيجاد عُقد جديدة كانت مختبئة راکدة غير ضارة. ولكن في حالة الاستعصاء على العلاج نعود إلى أيام الطفولة.

* * *

كان المحامي «م» حين يدخل المحكمة ويبدأ في المرافعة أمام القضاة يختلج وجهه، فيشوه سحنته ويربكه في ترتيب كلماته، ومرجع هذا إلى أن المحكمة تجعله يقف منها موقفه القديم في فصل المدرسة حين كان يطالب من المعلم بالإجابة على الأسئلة الصعبة ويخشى السقوط.

* * *

في التحليل النفسي: الاسترخاء أولاً ثم الاستذكار.

* * *

أحاديث إلى الشباب

عندما كان «س» يشترك في حديث ما كان يضحك بلا سبب ظاهر، بحيث كان يستغرب محدثه هذا الضحك منه، وكانت هذه العادة قد نبتت فيه منذ كان صبيًا يهزأ به قرناؤه، فصار الضحك عنده بمثابة الاسترضاء للسامعين.

* * *

كان «أدler» يقول للمريض: أستطيع أن أحقق لك الشفاء إذا كنت تعدني وتنجز وعدك بأن تسعد أحد الناس مرة كل يوم؛ ذلك لأننا حين نسعد غيرنا نسعد نحن أيضًا.

* * *

لذة الحياة في الصبا لا تؤجل إلى سن الشباب، ولذة الحياة في الشباب لا تؤجل إلى سن الكهولة، فيجب ألا نعامل صبياننا كما لو كانوا رجالًا، ويجب ألا نعامل شبابنا كما لو كانوا كهولًا.

* * *

الحب هو حياة الحياة.

* * *

يجب أن تتقدس حياة الشبان بالحب.

* * *

إذا كثرت معارفنا عن موضوع معين عجزنا عن التأليف الحسن عنه؛ ذلك لأننا لا نصل إلى الرأي القاطع فيه.

* * *

يمكن سيكولوجيًا أن نردّ الفضائل كالشجاعة والشهامة والولاء والحب إلى بواعث نيوروزية.

* * *

على هامش السيكولوجية

والقلق لا ينشأ من خطر معين، وإنما من خطر مجهول؛ إذ إننا حين نعين الخطر (إذا كان حقيقياً) ينقص إحساس القلق.

* * *

إذا تبرعنا لمساعدة شخص أو مشروع أصبحنا نحس عاطفة تربطنا بهما.

* * *

في فن الدعاية: نصف الحقيقة أنجح من الحقيقة.
وأيضاً موقف الدفاع هو موقف الهزيمة.

* * *

الدين على مستواه الأعلى هو الحاسة الاجتماعية الإنسانية على مستواها الأعلى.

* * *

نحن من صنع المجتمع، وما نسميه أمراضاً نفسية إنما هو استجاباتنا ورجوعنا إلى أهداف وقواعد واصطلاحات اجتماعية نعجز عن الملاءمة بينها وبينها.

* * *

المركب في السيكولوجية هو العقدة، ولكن يحسن أن نجعل الكلمة الأولى للاتجاهات الحسنة، أو غير الضارة على الأقل، أما الثانية فنجعلها للاتجاهات الضارة.
فالطمأنينة مركب نفسي، والخوف عقدة نفسية.

* * *

«أدلر» يقول: الشجاعة هي صحة النفس.
ذلك لأن الخوف هو الأساس الأول للأمراض النفسية.

* * *

ليس هناك «إرادة على وجه عام»؛ لأن الإرادة «خاصة».

* * *

أحاديث إلى الشباب

عندنا في مصر كلمات سَفَّاحة مثل العرض والثَّار والدم والانتقام، ومعظم القتل في الصعيد ينشأ من هذه الكلمات التي تعين أفكارًا سَفَّاحة.

* * *

الانتباه هو فصل جزء مما يحيط بنا حتى نركز فيه التفكير.

* * *

وجودنا الاجتماعي يعين وجداننا، أي يعين أفكارنا وإحساساتنا وأخلاقنا وأدياننا ومطامعنا وخرافاتنا.

* * *

اللغة وسيلة للتفاهم الاجتماعي، ولكنها أيضًا وسيلة للارتقاء الاجتماعي، وذلك حين تحتوي كلمات ارتقائية تكون بمثابة الشعارات التي تعين على الإصلاح والخير والشرف.

* * *

ليس هناك رجل مائة في المائة، كما ليس هناك امرأة مائة في المائة، نحن الرجال نحوي شيئًا من الأنوثة.

وكذلك كل امرأة تحوي شيئًا من الرجولة.
وقد يزيد مقدار هذا الشيء فتحدث الشذوذات والمتاعب الجنسية.

* * *

جميع أفكارنا تتأثر لإحساساتنا حتى حين نفكر في موضوعات نائية عن ملابسات العيش، مثل الرياضيات أو الكيمياء.

* * *

الفهم هو ثمرة الفكر والعمل، وكل منها مفاعل للآخر يتكشف به وينمو، ويمكن أن نفكر بلا عمل أو بلا أساس للعمل، كما يحدث لنا في أحلام اليقظة، ولكن تفكيرنا عندئذٍ يكون في الخواء، أما العمل فلا نستطيع أن نقوم به بلا تفكير.

* * *

عندما أعالج موضوعاً أشرحه وأخترع فيه وأولف بين أجزائه أحسُّ أن هذا الموضوع قد
غيرني أيضاً؛ لأنني أنا وموضوعي مفاعلان.

* * *

كل كتاب له أصلية وبه اختراع، كما ينطوي على هدف، يغيرنا نحن المؤلفين؛ إذ هو يربطنا
بما أبدينا نحن من آراء وبما اتخذنا من أسلوب وما دافعنا عن قضايا، وعندئذٍ تلابسنا
كل هذه الأشياء مدى أعمارنا، فنعتاد عادات ذهنية وفق هذا الكتاب أو هذه الكتب التي
ألفناها، ولا نستطيع التخلص منها.

* * *

الإجرام ليس وراثياً، هو مثل العبقرية اجتماعي.

* * *

صحيح أننا نجد أحياناً بعض التشوهات في المجرمين مثل الفَوَه أو العجافة أو العرج أو
القصر أو العور؛ ذلك أن هذه الألوان من الدمامة تحدث في صاحبها إحساس النقص الذي
يعالجه بنوع من البراعة الإجرامية، أي إنه يلجأ إلى أسلوب الأطفال كي يثبت تفوقه ويؤكد
كرامته.

* * *

الضيق الاقتصادي يؤدي إلى ضيق نفسي ينفجر بضروب مختلفة.

* * *

المجرم المتعود الإجرام لا يندم عندما يدخل السجن، ولكنه يبحث هذا الموضوع التالي: ماذا
كان يجب عليّ أن أعمل حتى لا أقع في أيدي البوليس؟

* * *

الاهتمامات الاجتماعية الإنسانية خير ما يقينا من الأمراض النفسية.

* * *

أحاديث إلى الشباب

قدرتنا على التفكير العميق هي قدرة على التألم العميق.

* * *

اللذة أو السرور يزدادان حدّة إذا وجدنا في سبيلهما شيئاً من المقاومة لا تصل إلى حد
الفشل والخيبة، ومن هنا قيمة التمتع في المرأة.

* * *

هدف الفلسفة هو المواءمة بين المعارف المختلفة للوصول إلى مبدأ عام أو نظرية شاملة.

كان تولستوي يحرق الأرض

كان تولستوي نبيلًا وثريًا وأديبًا، كان يحمل لقب «كونت» كما كان يملك ضيعة كبيرة، وإلى هذا كان يحترف الأدب العالمي ويؤلف القصص الخالدة التي يعرف منها القراء «أنا كارنينا» و«الحرب والسلام» وغيرهما.

ومع هذه المكانة كان يخرج إلى الحقل ويقود زوجين من الخيول يجران محراثًا يحرق الأرض ويهيئها للزراعة، وأنا أكتب هذه الكلمة وأمامي صورته، وهو في هذا العمل المجهد قد أطارت الريح لحيته، وهو والجواري يلهثون من التعب والجهد.

كان تولستوي رجلًا «طبييًا» تشع الطيبة من أخلاقه ومؤلفاته، وكان يعتقد أن الأرض يجب أن يملكها الفلاحون الذين يفلحونها، ولا يملكها الذين ينامون على الكسل ويستيقظون على الكسل ولا يعملون ولا ينتجون، وكان قد اصطدم بعائلته؛ إذ كان قد شرع في التنازل عن أرضه للفلاحين، ولم ينجح بالطبع في هذا الإجراء؛ لأن زوجته وسائر عائلته صمدوا له ومنعوه من هذا العمل.

فكان يرضي ضميره الاشتراكي بأن يؤدي بيديه من وقت لآخر عملًا وضيعةً، أو ما نسميه «ضيعة» في ضوء القيم الأخلاقية التي نشأنا عليها، فكان يحرق هو الأرض ويحصد القمح ويصنع الأحذية ويقطع الشجر ونحو ذلك.

وليس شك أن هذه الأعمال كانت ترضي نفسه بعض الشيء، ولكنه مع ذلك كان ينظر منها إلى مأرب آخر، وذلك أنه كان يجد في التزامه الكتابة على مكتبه وسكون جسمه إليه إمارة لعضلاته وتعطيلًا لنشاط جسمه، فكان يمارس هذه الأعمال الزراعية كما يمارس نحن الألعاب الرياضية.

وقد كانت له حكمة في ذلك، فقد كان يقول: إننا إنما نمارس الألعاب الرياضية؛ لأننا لم نعد نعمل أعمالًا تحتاج إلى تمرين العضلات؛ إذ تركنا هذه الأعمال للفلاحين والنجارين

وغيرهم من العمال الفقراء، وارتضينا لأنفسنا أعمالاً لا تطالبنا إلا بأقل الجهد العضلي، مثل الكتابة والإدارة وغيرهما.

وبكلمة أخرى: لو أننا كنّا جميعاً نعمل بأيدينا أعمالاً منتجة ونجهد عضلاتنا في زرع وريّ وحصاد وتقطيع للشجر، أو استخراج لمعادن من منجم أو بناء للمسكن أو تمهيد لطريق أو تشييد لجسر، لو كنّا نفعل ذلك لما احتاج أحدنا إلى الألعاب الرياضية؛ إذ إن هذه الأعمال كانت جديرة بأن تغنينا بما فيها من مجهود عضلي وجسمي عن الألعاب كافة. وهذا قول لا أستطيع أن أقول: إنه يحتوي كل الصحة، ولكنه يحتوي على كثير منها، وكان تولستوي يحث الأرض لهذا السبب بدلاً من أن يلعب الكرة أو يمارس السباحة. وحياة الطبقة المتوسطة في المدينة هي في الأكثر حياة القعود، وليس متاحاً لنا أن نحث الأرض كما أتيح لتولستوي؛ ولذلك نحن نحتاج إلى ألعاب رياضية تحرّك عضلاتنا الراكدة، وتبعث القلب على النشاط، وتجعلنا نعرق ونلهث، هذا العرق وهذا اللهث اللذان لا يحتاج إليهما الفلاح؛ إذ هو يجد الكفاية منهما في حرثه وريّه وحصاده للقمح أو جنيّه للقطن.

ولما دعا جان جاك روسو دعوته إلى العودة إلى الطبيعة كان ينظر من خلال هذه الدعوة إلى أولئك الملايين من الرجال والنساء في المدن، الذين لم يعرفوا قط آفاق الطبيعة الرحبة وهواء الحقول المنعش وشهوة الحركة بالجري والوثب على الخضرة، ورؤية الحيوانات على فطرتها الساذجة الجميلة، ونحو ذلك.

ونحن نمارس الألعاب الرياضية كي نتعوض بها من حياتنا الراكدة المتكلفة في المدن؛ ولذلك نؤثر تلك المصايف التي نستطيع فيها أن «نسقط الكلفة» على الشواطئ، فنسير حفاة أو نلبس الجلابيب الفضفاضة، وننسى المواعيد ونتعرض للشمس ونثب في الماء ونضحك من أتفه النكات، ونقرأ السخف من المجلات ونمرح ونزأط كما لو كنّا حيوانات. والحق أن في نفوسنا شهوة لأن نكون حيوانات، فإن حياتنا المتمدنة تثقل ضميرنا بالمسئوليات، وترهق عقولنا بالمشكلات، وتثير في نفوسنا مطامع بعيدة، وتجعلنا نعيش في مباريات تبعث أحياناً الحسد والبغض؛ ولذلك نشتاق إلى التخلص من جميع هذه الأشياء التي ترهقنا ونرغب في شيء من السذاجة الحيوانية، فنحيا في المصايف شهراً أو أكثر، وكأنه ليس لنا همٌّ أو اهتمام في الدنيا بغير الطعام والحديث والجري والسباحة والوثب والضحك.

كان تولستوي يحرق الأرض

والرياضة هي تنظيم لهذه الشهوات، وهي تقوم على تعليم الشباب كيف يمرنون عضلاتهم التي أضعفتها عادات القعود للدرس أو العمل الكتابي، وكيف يمضون فراغهم بعيدين عن إغراء البطالة بالاستسلام لعادات سيئة تعود بالضرر على الصحة والأخلاق. والجسم هو مجموعة كفاءات عقلية وعصبية وعضلية، والصحة المثلى تحتاج إلى تنشيط هذه الكفاءات جميعها، وليس واحدة منها فقط، وحياتنا المتمدنة الراكدة تحتاج إلى تحريك وتنشيط كفاءتنا العضلية المعطلة. ومن هنا قيمة الرياضة، ومن هنا الاهتمام بمهرجاناتها.

أعظم اللذات

هناك ملذات مادية نشترك فيها مع الحيوان، مثل لذة الأكل أو الجنس، وهذا الاشتراك لا يعيبنا؛ إذ إننا قبل كل شيء حيوانات، لنا خثولة وعمومة في القردة والسباع والبهائم، بل السمك والمحار، تربطنا جميعًا قرابة تطورية تعود إلى مئات الملايين من السنين.

ولكننا نحن البشر نمتاز عن الحيوانات بأن لنا أيضًا ملذات روحية، وأسمى هذه الملذات هي لذة الفهم، وصحيح أن الحيوان يفهم، ولكن فهمه بدائي ساذج، معظمه انعكاسات مباشرة أو كيفية تكييفًا صغيرًا.

أما نحن فإننا نفهم ما يمكن أن نسميه الفهم الكبير، أي الفهم التصوري الذي يتجاوز الأشياء المادية إلى النظريات والمبادئ والتعميمات، وقد وصلنا إلى هذه الميزة بالعقل ثم باللغة ثم بالكتابة.

فنحن نعرف معاني أمس وغد، وكذب وصدق، وكوكب ونجم، مما لا يمكن أن يفهمه الحيوان؛ إذ ليست له لغة؛ ولذلك لا يستطيع التصور إلا قليلًا بل قليلًا جدًا.

ولذلك أيضًا نحن نتعب ونفكر كي نفهم، ونحس لذة الفهم حين تنبلج لنا حقائق تتجاوز الشيء المفرد، نعرفه بالإحساس والتخصيص، إلى مجموعة الأشياء، نعرفها بالتصور والتعميم.

وعندئذ تتكون لنا النظريات التي تجعل التفكير العلمي ممكنًا. والفهم العالي هو بحث لا ينقطع ولا يقف للوصول إلى التعميمات، واستخراج النظريات التي تغني إحداها عن آلاف المعارف المتفرقة، ومن هنا القيمة الكبرى للدراسة الدائمة، كي نقف على حقائق الكون والدنيا والمجتمع، فإن هذه الدراسة تجمع المعارف التي نقارن بينها ونستخرج منها النظرية أو على الأقل المبدأ، وعندئذ يخرق ذكاؤنا الحقائق فنزداد فهمًا، ونجد لذة هذا الفهم في عقولنا بما لا تقاس به أية لذة أخرى.

وأعظم ما يعوقنا عن الفهم هو أن نعتزل المعارف، ونقنع بأن نتعلم أو نعرف شيئاً واحداً، ثم «نتقوقع» في هذا الشيء، أي نسلك بشأنه كما تسلك القوقعة حين تدخل في صدفها قانعة بالسكون، وكثيرون منّا يفعلون ذلك كالتاجر لا يعرف غير متجره وبيته، أو كالمهندس لا يدرس غير الهندسة، أو الزوجة لا تهتم إلا بزوجها وأبنائها، وكأن الدنيا تحد بحدود الجدران في المنزل الذي تسكنه.

هذا الاعتزال، هذا التقوقع، هذا ما يحُدُّ من فهمنا نحن عامة الناس، بل يحُدُّ من الفهم عند أعظم الأذكىاء، كرجل العلم الباحث الذي ينكبُّ على معمله، يبحث ويجرب بشأن إحدى المواد أو أحد الميكروبات، ثم يستغرق هذا البحث كل وقته وكل مجهوده حتى لا يجد فسحةً من وقت أو جهد كي يدرس الآداب والفنون أو التاريخ والاقتصاد.

إنه بهذا التخصص، بهذا الانعزال، ينعزل أو يتقوقع، وكأن تخصصه مدعاة جهله وليس وسيلة ثقافته.

الثقافة تعميم والعلم تخصص، ويجب كي نكون أذكىاء نحس لذة الفهم العام أن نكون مثقفين، لا أن نكون علماء فقط أو أدباء فقط، أي يجب أن نعرف العلم والأدب والفن والتاريخ والاقتصاد.

النظرة الشاملة التعميمية هي نظرة الرجل المثقف، أي الرجل الذي يتسم بسمات الإنسانية العالية أو التمدن المهذب.

كانت كليات العلوم في أوروبا إلى وقت قريب تعلم طلبتها علماً معيناً يتخصصون فيه، ولا يكادون يعرفون غيره إلا القليل الذي تزودوا به من المدرسة الثانوية، أما الآن فإن الجامعات الممتازة تصرُّ على تعليم طلبة العلوم المتخصصين شيئاً من الفنون أو الآداب أو التاريخ أو الاقتصاد، إلى جانب تخصصهم العلمي، وذلك لزيادة الفهم وإيجاد صلة بينهم وبين المجتمع الذي يتخصصون لخدمته بعلم أو فن معين.

ورجل العلم حين يخرج من قوقعة التخصص إلى رحاب الثقافة العامة لا يزيد مهارة في عمله، ولكنه يزيد حكمة ونضجاً في معاني الإنسانية والمجتمع والمستقبل البشري، فيجد نفسه سعيداً يلتذُّ هذا الفهم العام، ويحيا طيلة حياته وهو يستطلع حقائق الحياة والخير العام.

وقبل أن تنص هذه الكليات التي ذكرناها على تعليم طلبة العلم مواد أخرى لا تتصل بتخصصهم وتجاربهم العلمية كان الناضجون من العلميين يفعلون ذلك تلقائياً؛ لأنهم وجدوا بذكائهم أنهم في حاجة إلى هذه الثقافة العامة، لا تزيان عقولهم ونضج تفكيرهم، بل وجدوا في هذه الثقافة العامة ما ينير أذهانهم عن قيمة تجاربهم العلمية.

إن أسوأ ما في التخصص ضيق الأفق، وأحسن ما في الثقافة رحابة الأفق.
إن «فيلاتوف» المعروف بين المتخصصين في طب العيون بترقيع المقلة والحدقة ينظم الشعر ويقرأ القصة ويتابع السياسة، و«هولدين» يدرس الاقتصاد مع تخصصه في درس الإحصاء، و«بيرنال» أعظم رجال العلم في إنجلترا يؤلف كتباً عالية في تاريخ الحضارة، وأذكر أنني لم أقرأ فصلاً عن أديب ألمانيا «جوتيه» خيراً مما كتبه «متشنيكوف» الذي يعرفه الفسيولوجيون بما له من فضل في تعيين مهمة الكريات البيضاء في الدم.
هؤلاء وغيرهم من رجال العلم المتخصصين عرفوا اللذة الروحية في ذكائهم حين خرجوا من تخصص العلم إلى تعميم الثقافة، ثم هم بهذا التوسع استطاعوا أن يربطوا بين العلم والمجتمع، هذا الربط الذي جهله أولئك الذين تخصصوا في اختراع القنبلة الذرية، وساروا في تجاربهم الجهنمية حتى النهاية المفزعة في هيروشيما، ولو أنهم كانوا مثقفين وليسوا علميين فقط، لكانوا عندئذٍ إنسانيين.
الثقافة العامة تزيد فهمنا وتجعلنا إنسانيين، كما تزيد سعادتنا؛ لأنها تتيح لنا أسمى اللذات، وهي لذة الفهم والذكاء.

الاستقلال الفكري

عندما نجد طفلاً قد بدت عليه أعراض النقص في الغذاء؛ لجهل الأم في اختيار طعامه أو لفقرها عن شراء ما يحتاج إليه، ننصح لها عادة باختيار طعام رخيص يحتوي على جميع العناصر التي يحتاج إليها الطفل كي ينمو النمو السوي.

وربما كان أحسن هذه الأطعمة بيضة يتناولها الطفل كل يوم أو كل يومين، فإنها تحوي جميع العناصر التي يحتاج إليها الفرخ من لحم إلى شحم، ومن أظافر إلى ريش، ومن دم إلى عظم، ومن عصب إلى عضل ... إلخ، وهي إذن جديرة بأن تصحح الخطأ في اختيار الطعام للطفل، وتعوض النقص الذي تقع فيه الأم حين تختار له الرز أو الحلوى، أو تسرف في إطعامه الخبز وسائر تلك المواد النشوية التي لا ينمو بها وإنما يسمن فقط. وليست البيضة بالطبع كل شيء، ولكنها ضمان من الجهل الذي تتسم به بعض الأمهات، وخاصة إذا كنَّ فقيرات لا تتنوع الألوان على مائدتهن، ولا يتوافر عليها اللبن وبعض المواد البروتينية التي يحتاج إليها الأطفال.

والأم العاقلة تفكر في نمو الطفل أكثر مما تفكر في تسمينه بحشو بطنه بالمواد النشوية الرخيصة.

وكذلك يجب أن يكون شأن الشاب في اختيار غذائه العقلي، فإنه يجب ألا يحشو ذهنه بتلك المعارف التي تحفظ أي تستذكر، فإنها حشو يتضخم بها الذهن، ولكنه لا ينمو؛ إذ هي للذهن بمثابة المواد النشوية للجسم؛ ولذلك عليه أن يأخذ بتلك الثقافة التي ينمو بها ذهنه بالتأمل والتفكير والبحث والاستقلال.

إن الثقافة نوعان: ثقافة يعتمد فيها على الذاكرة ومعظم الدراسات القديمة تجري هذا المجرى، حيث يكلف التلميذ أو الطالب الحفظ عن «ظهر قلب»، ويكاد يعجز لهذا السبب عن الابتكار في البحث أو الاستقلال في التفكير؛ إذ هو يتضخم دون أن ينمو.

والنوع الثاني هو تلك الثقافة العلمية الجديدة التي لا تطالب أحدًا بالاستذكار، وإنما بالتفكير. وهذه الثقافة هي ابتداء جديد ووعي جديد في الإنسان، ومع أنها قد بزغت منها بوازع عند الشعوب القديمة من المصريين إلى الإغريق إلى العرب، فإنها لم تنتشر إلا منذ أقل من أربعمئة سنة.

ثقافة العلم هي ثقافة الابتكار والاستقلال، التي دفعت بالإنسان إلى التساؤل، فرفض التسليم بالمعارف القديمة، وجعل يسأل ويبحث ولم يندفع بما كان يقال بأن الأسلاف كانوا حكماء، وأنهم عرفوا كل شيء، وإنما سلّم بجهله وجهلهم، ورفض أن يستذكر ويحفظ عن «ظهر قلب»، وانتهى بحقائق العلم التي غيّر بها نفسه ومجتمعه، بل هو يغير بها الآن الدنيا بأرضها وبحارها وجبالها، ثقافة العلم هي التي جعلت الإنسان يكتشف قارة جديدة يعيش فيها الآن أكثر من أربعمئة مليون إنسان، هي أمريكا. وثقافة العلم هي التي جعلتنا نصعد إلى السماء ونكاد نلغي المسافات، فقطع ما بين القاهرة ولندن في أربع ساعات أو أقل.

وثقافة العلم هي التي جعلتنا نعالج ونشفي نحو ٢٠ أو ٣٠ مريضًا بالضديات. وثقافة العلم هي التي ننتظر منها أن نعيش أصحاء نحو ٣٠٠ أو ٤٠٠ سنة. وثقافة العلم هي التي جعلتنا نقف على أسرار الكون في أصله ونهايته، بالوقوف على أسرار الذرة بعد أن كنّا نؤمن بالخرافات.

إن الثقافة السيئة مثل الغذاء السيئ تجعلنا نتضخم بالمعارف ولكننا لا ننمو، وهذه هي ثقافة الاستذكار، أي الحفظ عن ظهر قلب، أما الثقافة العلمية فهي مثل البيضة للطفل تكفل لنا النمو الذهني.

والواجب الأول على كل شاب أن يعرف الفرق الأساسي بين هاتين الثقافتين، وأن يزود نفسه حين يشرع في الوعي الثقافي بعلم من العلوم يدرسه، ويتدرب على مناهجه ويتعلم منه طرق البحث والاستقلال في التفكير، وضرورة النقد القاسي للأخطاء والأوهام التي يقع فيها الحافظون عن «ظهر قلب».

ولا يمكن الشاب أن يكون عصريًا إلا إذا عرف علمًا من العلوم. وليس هناك استظهار في العلوم، أي ليس هناك حفظ عن ظهر قلب لمعارف مثبتة بالتجربة.

وهو حين يفعل ذلك يحسُّ الاستقلال الفكري، وأنه ليس هناك من يستعمر ذهنه ويقسره على التسليم ويطلبه بالحفظ الأعمى الأصم.

ولن يستطيع أحد منّا أن يفهم التطور السريع الذي يجري هذه الأيام في عالمنا إلا إذا تعمق العلوم على قدر ما تسمح له به ظروفه، وليس شك أن أحفادنا وأحفاد الأحفاد سينهجون المنهج العلمي في حياتهم وأسلوب عيشهم وزواجهم وطعامهم وسكناتهم وإنتاجهم أكثر منّا مائة ضعف، ولكن مع عجزنا الحاضر عن أن نكون علميين في تفكيرنا مائة في المائة علينا ألا نهمل القليل الذي زدنا به العلم كي نتصل بحقائق الدنيا والكون والحياة اتصالاً سليماً، أي اتصالاً استقلالياً بالبحث والدرس وليس اتصال العبيد بالسادة يأمرونهم بالطاعة فيخضعون.

إن العلم في عصرنا هو الذي يقرر القوة لعارفيه وممارسيه، وهو الذي يقرر الضعف لمن ينكرونه ولا يدرسونه، العلم هو فنُّ القوة بجميع معانيها.

إن العلم هو الذي جعل الأمريكيين والإنجليز يستولون على كنوز البترول في الأقطار الشرقية، بينما أبناء هذه الأقطار الذين لا يزالون يعتمدون على ثقافة الاستذكار والحفظ عن ظهر قلب للعقائد يخضعون لهم راضين بالقليل الذي يعطيهم إياه الأمريكيون والإنجليز من أطراف أصابعهم.

أيها الشاب: تعلّم علماً من العلوم، واستقلّ في تفكيرك، وزد بلادك قوة وثراء وخيراً.

